حدائق الخريف..

رواية

عنوان الكتاب: حدائق الخريف

المؤلف: حسن البنداري

الناشر: مكتبة بورصة الكتب للنشر والتوزيع

لوحة الغلاف: الفنانة/ زينب السعودى

بورصة الكتب

مكتبة

بورصة الكتب للنشر والتوزيع

٢٥ شارع شريف- القاهرة

٠١٠٠١٨٨٩٣٦٣-٠١٢٨٧٩٧٢٧٩٧ - ٠٢/٢٣٩٢٠٣٦٩

SAYYAB BOOKS
PRINTING, PUBLISHING
&
DISTRIBUTION
LONDON - UK
www.sayyab.org
www.sayyab.co.uk
contact@sayyab.co.uk

بريطانيا – لندن

رقم الإيداع : ٢٠٦٦٦ /٢٠١٢

الترقيم الدولي:

٩٧٨-٩٧٧-٥٠١٦-٣٢-٤

حقوق الطبع محفوظة.

حسن البنداري

حدائق الخريف..

(رواية)

الطبعة الأولى

٢٠١٢

الناشر

بورصة الكتب

SAYYAB BOOKS
PRINTING PUBLISHING & DISTRIBUTION
LONDON - UK

مكتبة

بريطانيا – لندن

بورصة الكتب للنشر والتوزيع

٠١٠٠١٨٨٩٣٦٣-٠١٢٨٧٩٧٢٧٩٧ - ٠٢/٢٣٩٢٠٣٦٩

-٠١٢٨٧٩٧٢٧٩٧ - ٠٢/٢٣٩٢٠٣٦٩

البنداري، حسن.

حدائق الخريف رواية/ حسن البنداري . ط١.-

القاهرة: بورصة الكتب للنشر والتوزيع،٢٠١٢ .

١٩٠ص؛ ٢٠سم.

تدمك:٤ - ٣٢ -٥٠١٦-٩٧٧-٩٧٨

١- القصص العربية.

أ- العنوان.

٨١٣

رقم الايداع

٢٠١٢/٢٠٦٦٦

الترقيم الدولي:

٩٧٨-٩٧٧-٥٠١٦-٣٢-٤

رنين الصمت..

ـ هناء الذهبى

(١)

فتحتُ باب الشرفة البحرية المطلّة على الحديقة الواسعة. مست وجهى المرمري نسمات نوفمبر المسائية الباردة فأنعشت الصدر للحظات لكنها لم تزل انقباضه، ولا أزاحت إحساسى بالكآبة..

تقدمت خطوة من السور المعدني اللامع العاكس للون الغروب المتراجع، فبدت ڤيلاّت التجمع الخامس المغلفة بالصمت موحشة وغير مريحة. تقدمت خطوة أخرى وارتفقت حافة السور لأتابع معالم الحديقة الفسيحة تسوّر جهاتها الأربع أشجارُ الكافور والجازورينا الخضراء الداكنة، وتتوزع في الوسط والأركان أحواض الزهور والورود المربعة والدائرية والمستطيلة..

ابتسمت برضا وسعادة: أبدع البستاني الجديد في تجميل الحديقة التي تسرّ العين وتثير الدهشة.. استمعت إلى نفسى وأنا أقول هامسة: ما أجمل الحديقة، كأنني أراها للمرة الأولى...

تأملت النجيل الأخضر المشذب تعلوه وريقات جافة هوت بها رياح الخريف التي تهب بين الحين والحين على الأغصان، وتزيحها هنا وهناك، وتسوق معها نوارات أشجار الجوافة والبرتقال والليمون التي تتدلّى منها ثمرات صغيرة غير ناضجة. مشاهد بديعة لأشجار وورود وزهور تعهد برعايتها البستاني الجديد.. لكن المشاهد عجزت عن إزالة انقباض الصدر الحافل بالكآبة والهموم..

حدثت نفسى بأننى ضائقة بالحياة هنا، وغير واثقة من استمرار بقائى في الڤيلاّ الكبيرة "ڤيلاّ السعادة" رغم السنوات الخمس والعشرين التي قضيتها في رحابها وبين جدرانها ومعالمها... أشرفت على إعداد كل صغيرة وكبيرة في الڤيلاّ

التي شهدت ميلاد بناتى الثلاث ونموّهن. أنا غير واثقة من الاستمرار؛ فلم أعد أشعر بالرضا والاستقرار..

ضغطتُ يدي وأنا في الشرفة على بطاقة دعوة تسلمتها منذ قليل. أرسل البطاقة بالبريد السريع الدكتور شريف السرجانى رئيس مجلس إدارة نادى التجاريين المطل على النيل بشارع البحر الأعظم، يدعوني غدا الأحد إلى حضور احتفال النادى بمناسبة مرور خمس وعشرين عاما على تخرج دفعة ١٩٦٧. فضضت البطاقة بانشراح وقرأت:

[السيدة هناء الذهبي: يسر نادي التجاريين دعوة سيادتك لحضور الاحتفال الذي تقيمه رابطة خريجي كلية تجارة القاهرة دفعة ٦٧ الساعة السادسة من مساء يوم الأحد ١٩٩٢/١١/٢٧. والحفل تحت رعاية السيد الأستاذ الدكتور/ عبد العزيز حجازى رئيس مجلس الوزراء الأسبق، أحد خريجي الدفعة.

رئيس مجلس الإدارة
د/ شريف السرجانى]

ابستمتُ وتهلل قلبى.. ونشط فكرى الذى استعرض سنوات الدراسة الأربع، رأيت زملاء الدفعة يتدرجون من سنة إلى أخرى، ورأيت نفسى محط أنظار جميع الفتيان والفتيات، وأنا أمضى بين أرجاء كلية التجارة وقاعاتها الدراسية، وحدائق الأورمان، والكافيتريا الحافلة بالجلسات الثنائية والجماعية.. وسمعت وقرأت عن بعضهم يتألقون في أعمالهم، ويحتلون مناصب في الجامعات، ويتولون إدارات ووزارات..

ورأيت زهران الغانم الصامت الخجول الذي ينطوي على نفسه أغلب الوقت... ورأيته وهو يغار عليّ من أي فتى يقترب مني. وشاهدته وهو يصعد معي إلى منصة قاعة الاحتفالات الكبرى لاستلام جائزتينا، هو في الشعر وأنا في القصة القصيرة في ربيع ٦٧ قبيل التخرج... ورأيته في الأورمان يحمل دبلتين فضيتين أدخل إصبعي الأيمن في واحدة محفور بباطنها اسمه وتاريخ أول لقاء بُحنا فيه بحبنا

٦٥/٤/١٥، ورأيتني وأنا ألبس إصبعه الأيمن الدبلة الأخرى محفور في باطنها اسمي وتاريخ البوح ٦٥/٤/١٥.

ورأيته ثائرًا بعد يوم من هزيمة ٥ يونيو ١٩٦٧، وناقما على المسئولين عنها.. ولاحت برأسي صورته وهو يقبل على مجلسنا المعهود بالأورمان بعد سبعة أشهر من الهزيمة المروعة بالبدلة العسكرية، ويقول: تم التوزيع على جبهة قناة السويس.. ورأيته لم يكترث بقولي:

- تقدم شاب لخطبتي أمس، وأنا في حرج شديد للغاية، وعليك أن تحاول مقابلة والدي.

وسمعته وهو يرفض المحاولة؛ لأنه عاجز لا يملك الوظيفة ولا المال. ورأيتني لم أصمد ولم أستطع المواجهة، فوافقت على دهشان الشاب الوسيم ابن المليونير عجلان الكردى أكبر تاجر حديد بالسبتية..

قلت لنفسي وأنا أدلف إلى الصالة الوثيرة: سألبي الدعوة وأذهب غدا إلى النادي النهري عن طريق الدائرى،

وبعبور كوبري الملك الصالح، وكوبري عباس، إلى شارع البحر الأعظم الذي يطل على معالم الشاطئ ومنشآته. ولا أظن أن "دهشان" يرفض حضوري الحفل؛ فهو في وادٍ وأنا في وادٍ منذ زواج سونيا البنت الثالثة والأخيرة في العام الماضي..

لن يعترض دهشان على تلبية الدعوة؛ فهو مشغول بعلاقاته المتنوعة المريبة الخفية، الظاهرة والمعلنة. سمعت مرة جارتي نبيلة تقول هامسة في جلسة صالون الأحد الأسبوعي:

- لدهشان علاقات نسائية عديدة.

وقالت لي سيدة في التليفون:

- دهشان الكردى عضو الحزب الوطني عن دائرة النزهة – عريق في التدبير للإيقاع بخصومه من الساسة ورجال الأعمال، ولولا صداقته لبعض كبار المسئولين بالدولة لما بزغ نجمه، وعلا صوته..

دهشان في واد وهناء الذهبي في واد آخر. ليكن ما يكون.. لكن المجابهة تمت صباح اليوم بضغط من ضيقي،

ونظرات جاراتي وهمساتهن في جلسات صالون الأحد الأسبوعي. فى بدء المجابهة قلت بصوت هادئ منخفض النبرات.. أحتج به على علاقاته النسائية المتكررة، وهو ينفي ويطلب مني ألا أصدق ما يقال عنه وأن أنساه:

- وتنتظر مني أن أسكت وأنسى؟!

فأجاب بصوت حاد مستفز:

- من مصلحتك نسيان أي شيء مسيء لي تسمعينه عني.

تساءلت دون أن يفارق صوتي الهدوء:

- من يجبرني على السكوت والنسيان؟

بادر إلى القول بصوت زادت درجة حدته:

- بناتك الثلاث.. أنسيت؟.. بناتك زوجات لرجال يتولون مناصب مرموقة، هم أبناء رجال يحتلون مراكز حساسة في البلد، ويمنعك ما ينتظرك من مفاجأت.

هرب صوتي ووهنت قواي فأطرقت وأنا أحدث نفسي متخاذلة: لا يمكن إيذاء البنات، وما عليّ إلا أن أصبر

وأصبر، وأنسى أو أتناسى؛ فلو سارعت إلى إعلان احتجاجي ورفضي لصرت مادة في المجالس الخاصة، ولصحف أحزاب معادية لدهشان، ولا أضمن إحجام أعوانه عن إيذائي، فهو ينظم -كما أعرف- عمليات إزاحة لكل مجاهر برأيه فيه مناوئ له. إما بالترهيب، أو القتل، أو الإخفاء. كيف يمكن السكوت والاستمرار في الريبة والزيف؟!.

بدا أنه استمع إلى صوت همسي.. فغادر المكان مسرعا هابطا السلم إلى الطابق السفلي.. إلى باب الخروج، بينما هرعت إلى غرفة اتخذتها لأقضي فيها أوقات ضيقي وتوتري.. وقفت أمام مرآة الدولاب الطولية. نظرت في وجهى متضايقة: ثمة "تجعيدتان" تحت الجفنين، وتجعيدة وسط الرقبة. سارعت إلى أدوات المكياج وداريت ما ضايقني..

(٢)

في السادسة هبطتُ من المارسيدس السوداء التي قادها عثمان السائق النوبي بهدوء وحذر من التجمع الخامس عن

طريق الدائرى.. حتى البحر الأعظم.. دخلت النادي الذي جلست فيه مرات قليلة آخرها العام الماضي وأنا أستمع إلى محاضرة الدكتور عبد العزيز حجازي عن أزمة الاقتصاد العالمي. قابلني شاب مهذب وقادني إلى قاعة الاحتفال المشرفة على المياه العاكسة للأضواء الملونة. ما إن اتخذت مكاني حتى أبصرته: زهران الغانم.. كان يجلس على مائدة قريبة وهو يدقق النظر إليّ. ابتسمت..

نهض زهران من مكانه واتجه نحوي. نهضت وتصافحنا وجلس. خيم علينا صمت لفترة قصيرة، ثم انضم إلى المائدة بعض زملاء الدفعة: نجاة الدهان وكيل وزارة التجارة، وزكي الأحمدي الوكيل بوزارة المالية، وليلى الشاعر المدير العام بوزارة الكهرباء. تبادلنا أحاديث الذكريات وطوفنا بأخبار متشعبة.. وكالعادة مال زهران الغانم إلى الصمت والاستماع.. ولأن الثلاثة كانوا يعرفون صلتي بزهران الغانم أثناء سنوات الجامعة – فإنهم غادروا المائدة، الواحد تلو الآخر فلم يبق على المائدة سوانا..

تأملته: خالطت شعرَ رأسه شعراتُ بيضاء متناثرة. عيناه السوداوان فيهما عمق يوحي بالعزيمة والإصرار، فتذكرت لحظة إبداء أسفه وغضبه لعجزه عن خطبتي وتخليه عن مساندته لي أمام تصميم عائلتي على تزويجي لدهشان الكردى.. وتذكرت إحساسي بالخوف عليه وهو بجبهة القتال كلما نشب اشتباك بالمدافع أو هاجم طيران المواقع المتقدمة. كم غضبت منه ونقمت عليه لانقطاع أخباره عني.. وكم حدثت نفسي بأنني استجبت ومنحت الحب ورضيت بأن يسور إصبعي الأيمن بدبلة فضية محفور في باطنها اسم زهران، ما زلت أحتفظ بها حتى الآن في مكان آمن..

هاهو صوته الرخيم ينزعني من ذكرياتي العابرة: قال بابتسامة صافية:

- لما تلقيت الدعوة تيقنت بأنني سأراك اليوم.

فقلت متساءلة:

- لم تسأل ولو مرة واحدة بعد آخر لقاء في الأورمان.

- ألحقت على وحدة في مواجهة العدو أمام القناة.
- لكنك لم تسأل ولو مرة واحدة... حتى بعد انتهاء الحرب لم تسأل..
- ما الفائدة؟.. أنت تزوجت وعرفت من نجاة الدهان شقيقة زميلي أكرم في الموقع أنك تزوجت وأنجبت ثلاث بنات. ما الفائدة من السؤال وأنت زوجة وعندك ثلاث بنات؟..

شملنا صمت.. واضطرب صدري بالغيظ من كلامي وكلامه.. ولكن تقديري لموقفه سرعان ما ذهب بغيظي.. ابتسمت وجعلنا نتابع برنامج الاحتفال الذي اقتصر على "بيان نشاط رابطة التجاريين"، ومحاضرة الدكتور عبد العزيز حجازي عن "دور رجال المال والأعمال في تنمية الاقتصاد المصري"، وفقرة غنائية قصيرة للمطرب محمد الحلو والمطربة سوزان عطية، بينما نتناول الشاي مع فطائر متنوعة..

أثناء الفقرات انثالت أفكار على ذهني: ها هو زهران يعود ليطرق بعنف أبواب عقلي وقلبي في وقت سئمت فيه الحياة مع دهشان الكردى الذي يكبرني بخمسة أعوام.. هو في الخامسة والخمسين. أنا -مثل زهران- في الخمسين، وسادت الخلافات في الأسبوع الأول من الزواج.. اكتشفت في الأسبوع الأول أنه غير مناسب لي، وليس متوافقا معي. كان بإمكاني أن أحتج وأرفض من الأسبوع الأول لكنني سكت. كيف لمثلي أن يحتج ويرفض؟.. أنا هناء. أنا هناء الذهبي بنت العارف بالله رياض الذهبي. كيف لي أن أهزّ أمام الناس صورته وألغي كلمته، وأُضعف من هيبته، وأشكك في قرار موافقته على دهشان الكردى؟! سكت وضغطت عقلي وكبتُ قلبي.. وتوالت مرات الحمل فانطويت على همّي. وهمست: لم أقصّر في حقه ولا في حق أحد.. ملك دهشان جسدي ليكن، وليعبث به كلما أراد. ودائما يريد.. لكنه عجز تماما عن امتلاك روحي.. كلما أرادني أغمضت عيني وفكرت في زهران..

زهران الآن قد عاد.. ماذا أفعل؟ هل أستجيب فأتجاوز الخطوط الحمراء الرادعة؟ أم عليّ أن أصبر وأكتفي بهذا اللقاء الذي لم يسع إليه كلانا. لكن كيف نقنع بمجرد الكلام وهو من الآن في متناول اليد، ولا يزال سيدا على روحي، مالكا لوجداني؟.. وسمعته فجأة يقول بصوت خفيض وهو مطرق الرأس:

- "سافرت في سنة ١٩٧٤ بعد الحرب إلى الكويت للعمل في وظيفة محاسب بشركة "العصيمي للبناء والتشييد". تعرفت فيها على موظفة مصرية أعجبتني. سرعان ما خطبت يسرية من أبيها مدير الشركة. وفي أقل من عام تزوجت: ثم أنجبت أربعة ذكور في خمسة أعوام.. وكان عليّ أن أضاعف جهدي؛ فشغلت وظيفة خبير تجارى في إدارة الخبراء بوزارة العدل بمرتب ضعف مرتبى بالشركة.. وعرّفتني الوظيفة الجديدة برجال مال وأعمال، وعدد من الشخصيات الاقتصادية المرموقة.. فانهالت

عليّ عروض سخية من شركات أخرى، فاستقلت وأنشأت مع صديق كويتي شركة "الاستشارات التجارية" درَّت علينا أموالا طائلة. اقتسمناها، ثم استثمرت نصفها في "سوق المناخ" لأحصل على أرباح طائلة. وفي عشر سنوات صرت من أصحاب الملايين"..

صمت برهة وهمس وهو يشملني بعينيه اللامعتين:

- كنت معي طول الوقت.. وكلما شعرت بشوق إليك هرعت إلى صورتنا التي جمعت بيننا في حفل جوائز الجامعة قبل التخرج، وتأملت دبلتك الفضية التي لازمتني في الجبهة، وفي الغربة..

رأيتني أقاطعه، وأنا أشعر بمشاعر الغيظ تعود إلى قلبي الذي ارتفعت دقاته وتسارعت:

- ومع ذلك لم تفكر في الاتصال بي.
- حاولت مرة، ولكن سرعان ما أوقفت محاولتي..

سكت للحظات وواصل:

- لأنني عرفت أنك زوجة دهشان الكردى. فآثرت منح نفسي بعض الوقت لتفادي الصدام معه. أنت طبعا تعرفين عنه أكثر مني.
- أعرف.. بل عرفت أخيرا أكثر وأكثر.. وأنا مذهولة مما سمعت.

جمعتنا لحظات صمت رأيت خلالها عينيه ترددان النظر في الموائد القريبة والبعيدة، وفي مائدتنا.. توقفت نظراته عليّ فرأيت فيها رغبة في الإفضاء بحديث إضافي.. لكن انضم إلى المائدة زميلنا أحمد الشوّاف رئيس مجلس إدارة شركة الغاز المتحدة.. قال وهو يشير إلى زهران بعد المصافحة الحارة:

- لا ينتمي إلى أي حزب سياسي، ولكنه محاربٌ بمقالاته في الصحف القومية والحزبية.. وبكتبه المترجمة والمؤلفة عن الصراع الدولى. زهران مقاتل عنيد، منذ حرب الاستنزاف وأنا أؤمن بأنه رجل المهام الصعبة..

تابعته وهو يطرق بتواضع جراء كلمات الثناء عليه. سعدتُ بما أسمع وتهلل داخلي الذي كان يشعر بزهران طول الوقت كأنه "القرين" الذي لا يراه أحد. وكم قلت: إن مجيئه سيغير من أشياء كثيرة. وتعززت رغبتي في أن يجابه ويصرح ويوضح "هدفه" الأساس الآن..

قبل أن نغادر النادي ترك بطاقة صغيرة فوق المائدة أشار إليها.. رفعت بطاقة أرقام هواتفه بسرعة وقبضت عليها،.. استحسنت تصرفه؛ فأنا بحاجة إلى التكلم معه، والاستماع إلى المزيد من كلامه. رمقته بنظرة واعدة قبل أن أغادر القاعة. حياني بعينيه العميقتين راسما ابتسامة صافية، ثم مضيت إلى باب الخروج لأستقر في السيارة السوداء..

(٣)

وصلت إلى القيلاَ وأنا مفعمة بالسعادة والرضا.. القيلاَ خالية إلا من مديرة القيلاَ سعدية.. لم يصل دهشان بعد. صعدت إلى

الطابق العلوي ودخلت غرفتي الخاصة التي أنفرد فيها فترات من اليوم.. وقفت أمام مرآة الدولاب.. تأملتني: رأيتني متوردة الوجه.. وبدت عيناي لامعتين، ولم أر تجاعيد الجفنين ومقدمة الرقبة. أين ذهبت التجاعيد؟! لم أشغل نفسي كثيرا بالبحث والتحري؛ فسرعان ما استعدت مشاهد جلسات النادي، وفقرات حفله، وهيئة زهران بطلّته الصامتة المنطوية على أفكاره وأسراره.. أحببت أن أتذكر المشاهد والأشخاص، الزملاء، والزميلات، والأصدقاء. رأيتهم جميعا ما زالوا يحيطونني بالرعاية والاهتمام.. صافحت أكثر من خمسين، وحييت عشرات بهزات من رأسي.. وددت أن تتواصل بذهني مشاهد النادي، ورغبت في ألا تفارق ذاكرتي فقرات الحفل البهيج.. وأطرقت وازداد شرودي.. بينما شعرت برغبة فى النعاس تمددت بملابسي وسط الشازلونج الزرقاء..

(٤)

انهالت على ذهنى أفكار وخواطر بينما أنا ممـــدة فـــى الشازلونج بين اليقظة والنعاس. فكرت فى أحاديـــث جـــاراتى

الخمس بالڤيلاّت المجاورة والمقابلة؛ نجتمع في الحادية عشرة صباح كل أحد بصالون ڤيلاّ السعادة لاحتساء الشاى والقهوة المحوجة، بينما نتبادل بحرية أحاديث مشوقة وعجيبة وجديدة: تبهر النفس، وتنعش القلب، وتثير النشوة، وتخفض من ضغط دم القلب، وقد ترفعه أحيانًا، خاصةً أن الأحاديث تتحول بسرعة إلى صور حركية محببة تقود إلى المزيد من الأحاديث التى تتناول الخصوصيات:

"فى جلسة الأحد الماضى كنّ كالعادة فى ضيافتى بصالون الڤيلاّ. جئن فى أوقات متقاربة وهن يرتدين ملابس خروج متنوعة. قالت ماتيلدا زخارى بصوت غير مبال:

- أعرف كل شيء.. وأتظاهر بالجهل.. وهو يعرف أننى أعرف.

صمتت برهة وأضافت:

- التحقيقات غير مجدية، وأنا لا أحب وجع الدماغ، فأفعل ما أرغبه دون ضجة ومن غير شكوى.

وقالت ذكرى الباهي:

- حاولت مرة أن أتحدى فأصبت بانهيار عصبى. قررت بعد الشفاء منه أن أهب قلبي إلى أي مَن أميل إليه..

وقالت ماتيلدا مؤكدة كلام ذكرى:

- وجدت الحل السحري فى تجربة حب تشعرنى بأنوثتى.

وقالت شويكار العفيفى:

- قابلت حاتم العدوي بعد عشرين سنة من زواج مكبل بأربعة أبناء.. قابلته صدفة فى نادى الزهور.. يصغرني بعشر سنوات. تواعدنا وتقابلنا عدة مرات فى سيارته بصحراء الهرم، وأنا الآن زوجة وأم لأربعة شبان. المشكلة أننى لا يمكن أن أستغنى عنه، ولا يمكن أن أخون.

فقاطعتُها بما يشبه الضيق:

- أنت خنت فعلاً..

- أنا لا أقابله إلا فى سيارته لا فى مكان مغلق.

- السيارة مكان مغلق.

فبادرتْ قائلةً:

- فى السيارة تتشابك فقط يده اليمنى بيدي اليسري ونتحدث كثيراً وطويلاً.

أحسست أن نظراتهن إلىّ غير موافقة على الحوار الجاري؛ إذ بدوت مصلحة أو ناصحة، وهن جئن للفضفضة والبوح والتخلص من أعباء تنطوي عليها صدورهن.. فسكت وأطرقت، تظاهرت بهزة موافقة على ما تقول شويكار حتى تستمر الأحاديث ويتواصل البوح..

قطع الصمت صوت ماتيلدا:

- عجز عن إرضائي بعد عشرين سنة زواج.. أنجبت منه ثلاثة: تخرجوا جميعاً من كلية الطب. نابهون فى جراحة المخ.. يتهرب منى دائماً لعجزه عن إرضائى.. وأنا دائماً مشتاقة.. ناجى السائق أعاد لى مرة الشعور بأنوثتى ونحن بالسوبر ماركت.. كان يقف خلفي

مباشرة وأنا أدفع حساب المشتروات.. توترت وخفت وهرعت إلى غرفة الاعتراف بالكنيسة.. سمعت من الكاهن كلاماً وأنا أتذكر بابتسامة سعادة صدمة ناجى، أراني الآن موشكة..

عقبت الطبيبة الدكتورة عايدة الكرداني بصوت مفعم بالحيوية:

- يصغرني بخمسة وعشرين في عمر ابني إيهاب.. طبيب عائد من أمريكا.. حاصل على الدكتوراه في "الحقن المجهرى وأطفال الأنابيب".. ولا أبالى بما سوف يحدث بعد زواج ممل دام ستة وعشرين عاماً، أتمنى الطبيب الشاب هشام النادى فى كل الأوقات، وجميع الأماكن.. لكن المشكلة أن عقلي رادع قوي يحبط ما أتمناه بينما يظل قلبي خافقاً له طول الوقت..

همستُ بصوت متردد خفيض:

- العقل يردع فقط؟! غريبة!.. يردع الأبناء، يردع إيهاب ونشوى أيضاً، وقبل كل شيء يردع الدين، وتردع الأخلاق.

رفعت رأسى وأدرت عيني في وجوههن.. كنّ عدا نبيلة متجهمات غير راضيات عن التحذير الذي أصدره بين الحين والآخر..

وقالت نبيلة الوقاد المنتقبة التى يخفى نقابها كل ملامح الوجه كلما حضرت، ثم ترفعه فور أن تستقر فى مقعدها بالصالون:

- رغم أنه مزواج مغامر، ويتعمد إهانتي، فلن أفرط..، يحمينى دائماً تديني، ويردعنى العلم، وتصبّرني الثقافة، وكتب التربية، فأنا مديرة مدرسة ثانوية، ولكنني بشر؛ فعندما يحفزني "الشوق" أفزع إلى غرفتى، وأندب حظى. تزوجته عن حب؛ لأنه مناضل سابق، وتاجر ناجح الآن، ولكنه مزواج، منذ خمس سنوات ويتعمد

إهانتي..كم استجبت مرات لتليفون الغرام الذى عرفتنى ذكرى الطريق إليه: عالم ساحر عجيب.. وفى كل مرة أنقم على زوجى الذى يوغل فى غيابه عنى.. ويتركنى أتابع وحدى بناتى الشابات الثلاث، وأنقم على نفسى لأننى رضخت لسحر التليفون ولم أجاهر باحتجاجى وثورتى..

شعرتُ وأنا أستمع إلى أحاديثهن بخفقان قلبى، داخلتنى أحاسيس الإثارة والانتشاء والخوف.. فكرت فى أن أروى ما لدىّ، وأبوح بما أعانى منه، وبما أتعرض له من إهمال، لكننى لم أفعل، لا أرغب فى أن يطّلع أحد على أسرار حياة هناء الذهبى. آثرتُ الصمت، وتجاهلت نظراتهن الداعية إلى البوح والاعتراف.. شعرت يومها بالراحة، وأنا أشاهدهن يغادرن القيلاّ الواحدة بعد الأخرى"..

توقف سيل الأفكار فرأيتنى فى الشازلونج مطرقة.. وسمعتنى أهمس لنفسى.. لا ينتظر أحد منهن أن أبوح كما

بُخْن. من الخطر أن أفضفض مثلهن.. لا أضمن أن يحافظ على سري أحد.. علاقتي بزهران الغانم يجب أن تظل فى طى الكتمان. وفضائح دهشان التى تصل تباعاً يجب التستر عليها من أجل البنات.. وعلىّ أن أخفف من لقائى بجاراتى الخمس وأقلل من الاستماع إليهن؛ فزهران يحتاج منى كل تفكير ورعاية، لكن دهشان لن يقبل هزيمة أمام أحد.. وربما بث حولى العيون فى حفل النادى الليلة.. ولا أستبعد أن يكون قد أرسل خلفى من يصور جلوسى مع زهران..

نهضت من الشازلونج ومشيت شاردة الذهن فى الغرفة جيئة وذهاباً، ثم غادرت إلى الصالة وأنا مملوءة بأحاديث الأحد الماضى التى تذكرتها منذ قليل، فذكّرتْنى بانصراف دهشان عنى وزهده فىّ منذ شهور عقب تصريحى أمامه بأن زهران الغانم أقرب زملاء دفعة ٦٧ إلى نفسى، لأنه نبيل ووطنى مخلص، فبالغ فى الهجر وصمم عليه رغم تقربى إليه واقترابى منه؛ فأنا حريصة على ألا أخالف حقه الشرعى وأنا لست كارهة له، فهو

والد بناتى. وكم تساءلت فى نفسى: ماذا أفعل لأستعيدك بعد أن جربت كل الوسائل والطرق؟!، ماذا أفعل وقد نفذت نصائح سمعتها من جاراتى الخمس، ومن برنامج المرأة العصرية فى التليفزيون صباح كل جمعة، وقرأتها فى ملاحق صحف أسبوعية، ومجلات حواء وسيدتى وزهرة الخليج؟!..

عدت إلى الشازلونج الأزرق وتمددت.. رجعت برأسى إلى الوراء وأغمضت عينى، مازلت أفكر فى جفوة دهشان وحرصى عليه، وأفكر فى أننى لم أقترف يوماً أى خطأ فى حقه رغم ما أسمع عنه من أخطاء وخطايا.. وهاأنا ذا أستمع إلى صوتى وصوته فى مناسبات عديدة وأوقات مختلفة:

"قلت له أول أمس:

- أنت مشغول جداً عنى..

فرد بسرعة..

- مشغول بك وبالبنات، كل ما أحوزه لك وللبنات..

قلت وفى عينى جلسات الأحد وبأذنىّ الأحاديث المثيرة:

- أحتاج اهتمامك.. أحتاج حبك.

فقال بعد تردد قصير:

- أنا أحضر إلى المنزل كل ليلة.. هل تأخرت عن أداء واجبى؟.

فسارعت إلى القول غاضبة:

- الحق أنا لا أشعر بك".

غادرت الشازلونج وفتحت النور.. اجتذبْت بصرى منضدة فوق سطحها رواية "بين الأطلال" ليوسف السباعى، فرغت من قراءتها منذ يومين. تعلو المنضدة صورة لى ملونة وأنا فى الثلاثين، كانت صغيرة فكبّرتْها وبرْوزتها بنتى نيرمين وعلقتْها منذ أيام فى عيد ميلادى الخمسين. تأملت الصورة: الوجه صبوح مبتسم ينسدل على جانبيه شعر أسود فاحم، وأنف شامخ تعلوه عينان واسعتان صافيتان بلون العسل الفاتح، وفى الشفتين ابتسامة خفيفة بدا أنها ليست لأحد.. يحلو لى دائماً تأمل الصورة كلما ضاقت نفسى وتوترت بسبب دهشان، وبتذكّرى

لزهران؛ لم يعد يأبه بى دهشان ولا يحرص كالسابق على الحديث الحميم معى.. منذ عام وهو منصرف ومتهرب ومراوغ.. يظن دهشان أننى أجهل سبب تراجعه.. أعرف كل شىء.. تأتينى أخباره الغرامية من مصادر عديدة.. ولكننى أحاول النسيان بوجه زهران..

نظرت فى ساعة الحائط المواجهة لى، يدنو العقرب الصغير من الواحدة. دهشان يوشك على الوصول.. ولابد كالعادة من الاستعداد لاستقباله..

توجهت مرهقة إلى المرآه الطولية. دعانى وجهى المرمرى إلى تدخل طفيف؛ فمررت إصبع الروج الطوبى فوق شفتى القرمزتين، وطليت الجفنين العلويين باللون الأزرق، وحددت الرموش بالمسكرة فارتفع قليلاً الرمشان العلويان، وأخفيت بكريم إخفاء التجاعيد تجعيدتين حول العينين وتجعيدة وسط الرقبة. وتعطرت بعطر ياسمين قديم كان يحبه زهران.. أنا أبتسم الآن لوجه زهران..

اطمأننت بزوال آثار الذبول الزاحف إلى الوجه المرمرى. صارحتنى المرآة: أنت الآن جميلة الجميلات.. بينما همست فى أذنى ذكرى الباهى بهمس يحرض عندما انتحت بى جانباً فى جلسة الأحد الماضى:

- الدخول فى تجربة حب جديدة كفيلة بعودة التوازن النفسى وتحقيق السعادة".

(٥)

سمعت أصوات أقدام دهشان الكردى تصعدان به درجات السلم الرخامى. فوق الدرجة الأخيرة وقفت أتابع صعوده المتثاقل بفكر مشتت، وصدر ضيق، وفم خال من بسمة البشاشة والترحيب، بينما حلت فى ملامح وجهه - أشعر- خطوط عبوس بالقطع لن يراها، لأنه غير معنى بالنظر والتأمل..

حين وصل إلى الدرجة الأخيرة ليطبع فوق الخدين قبلة الحضور-عادته منذ أن جمعنا الزواج والمسكن- فكرت فى

أن أحول وجهى هذه المرة بضغط شعور فجره زهران الغانم.. فكرت لكننى لم أفعل؛ أسلمت خدى الأيمن لشفتيه.. باردتان كقطعتى جليد، وشممت رائحة خمر عهدتها منذ زمن بعيد.. منذ الليلة الأولى من الزواج. فى الڤيلاّ بار وزجاجات خمر ونبيذ، ولم يأبه برفضى للخمر وكراهيتى للرائحة.. ولكننى لم أعترض على البار وزجاجاته ولاشكوت لأحد. كيف أعترض وأشكو وأنا لا أكترث بسلوك دهشان منذ أعوام؟!..

عندما رأيته يتجه إلى غرفة الملابس بخطوات ثقيلة متثاقلة مترنحة حدثت نفسى بأن الحال لايمكن أن تستمر وتدوم، وتساءلت: كيف أتوقع تغيّر الحال بعد انقضاء أعوام على جفاء مضاعف ومستحكم لايزول؟! ها هو دهشان وجد فى السّهر والشرب ومغامراته النسائية سعادته وراحة باله، فاختفى "النقار"، وتوقف الشجار. وها أنت قد وجدت فى ذكرياتك مع زهران، ومقابلتك له الليلة الرضا والاطمئنان والأمن والأمان، وعليك أن

تتساءلى الآن: هل يمكن أن يزداد بزهران الاطمئنان؟، أيمكن لزهران أن يحقق لى أخيراً الأمن والأمان؟..

أراه الآن يخلع ملابسه ويعلقها بعناية على شماعة دولاب الملابس.. يرتدى البيجامة النبيتى.. يتجه إلى الحمام. أعلم أنه سيقضى فى "البانيو" بعض الوقت محاولاً الإفاقة من السكر، وإزالة أثر الشراب..

رن جرس التليفون ثلاث رنات.. رفعت السماعة من فوق منضدة بالممر تجاور باب غرفة الملابس.. الصوت لذكرى الباهى.. تبدو منفعلة متلاحقة الأنفاس، حكت لىّ أنها وقعت فى حب جديد شغل فكرها أغلب الوقت فأنساها زوجها وأبناءها وقالت:

- لم أعد قادرة على كتمان مشاعرى..

قاطعتها بالسؤال:

- كيف تعرفت عليه؟.

- عن طريق حفل زفاف بقاعة الأوركيد بدار الدفاع الجوى.. تحادثنا بعض الوقت على انفراد، ثم تواصلنا بالتليفون.

سكتت برهة.. وقالت بوهن:

- بعد ثلاث مكالمات طلب أن يقابلنى.
- وافقت؟!.
- رفضت فى البداية ثم وافقت ولكن خفت.. ترددت وهو ملح.. وإلحاحه يثيرنى.. بصرينى، أنا خائفة للغاية.

قلت فى نفسى: ربما يكون الرجل صادقاً فى عواطفه، وربما يكون كاذباً. وتساءلت: هل الحب فى هذه المرحلة من العمر يعمى عن أشياء واضحة وضوح الشمس؟. هل تأكدت ذكرى من حقيقة مشاعره؟!. واضح من كلامها اللاهث أنها عمياء منقادة لنشوة مستحوذة.. وقالت فى شبه صيحة..

- لم أعد أطيقه.
- اصبرى.

- سأجاهر بهجرى له.

- اصبرى.. اصبرى.

هاهى ذكرى متمردة ومصممة على الهجر، بينما أكتفى أنا بإسداء النصح والتوجيه والإرشاد لذكرى والأخريات، دون أن تشعر أى واحة منهن بما ينداح فى صدرى، وما يتردد فى ذهنى، وما يتعالى فى وحدتى من صراخ مضمر أجتهد فى قمعه وكتمانه وإخفائه..

أمقدر لى أن اكتفى بالاستماع إلى الشكاوى طول الوقت مع رفضى فى أن يسمعنى أحد؟. فى الظلام كم جأرت بالشكوى لمعلوم لم يكف ذهنى عن طلبه.. طوال السنين الماضية طلبته رغم الزواج وبناتى الثلاث.. فى وحدتى وأوقات عملى، وفراغى، فى لحظات الصمت والضجيج. فى زياراتى العائلية وأثناء استقبالى ضيوفنا من الأقارب والمعارف والأصدقاء والصديقات. طول الوقت وأنا أفتش فى الوجوه عن زهران الغانم. هو المطلوب.. أخيراً ظهر فى حفل النادى الليلة..

توقف همسى الداخلى للحظات حين لاحظت تأخر دهشان فى الحمام. سرعان ماعدت إلى همسى ونشاط ذهنى فى تفاصيل الليلة التى سادها زهران بغموضه ووضوحه وهمسه وكلامه.. فلم أتوقف كثيراً عند فقرات برنامج الاحتفال، وبرغم ارتياحى بالعثور على ضالتى فإننى أشعر بحيرة شديدة: هل أصرّح لدهشان وينتهى الأمر بالردع أو الفراق؟ أم أرجئ المصارحة إلى الوقت المناسب؟. ومرور الزمن كفيل بوضع حلّ يخرجنى سالمة سليمة من النفق المظلم الذى أشعر أننى محشورة فيه..

لكن الجسد مهدد بزحف دبيب العجز. والنفس معرضة للوهن. وعما قريب ستزداد التجاعيد. وإلى متى ستنجح المساحيق فى إخفاء الأثر؟ ومهما حاولت "جراحة التجميل" فإن النتيجة مؤقتة وسرعان ما يصيبنى الضجر. وإذا لم أبادر بالمصارحة والمواجهة الحاسمة، فسوف ينكّل دهشان بمن تمرد ورفض.. همست لنفسى:

- أعلم أنه قادر على الرد السريع، والـردع الصـريح.. وربما يسعى إلى اغتيالى من غير أن يدينه أحد.

شعرت بالخوف والارتياع فدق قلبى وجـف حلقـى، وتلاحقت أنفاسى عندما تصورت "دهشان المنـتقم"؛ لدهشـان صلات وثيقة ببعض رجال السلطة والحزب، وضباط بمباحث أمن الدولة.. وفى السنوات الأخيرة اشتهر عنه استعمال العنف فى حل مشكلة تحدث فى العمل، أو فى مجلس الشعب. فهـو عضو بالحزب الوطنى.. وكـم جـاهر بضـرورة ممارسـة "العنف" فى مواجهة الخصوم من الأحزاب الأخرى.. ومـرة شكت لى جارتى شويكار العفيفى، من أن دهشـان الكـردى استأجر "بلطجياً" واعتدى على زوجها الدكتور شكرى العفيفى بالضرب حين كان عائـداً مـن الإسـكندرية فـى الطريـق الصحراوى بسبب مقال فى الأهـرام عـن نشـاطه المـالى المريب، ولولا تدخل بعض أصحاب السيارات المارّة لكان فى عداد الأموات، ورغم اعتراف البلطجى فى محضـر رسـمى

يدين دهشان الكردى فإن المحضر قد تم حفظه بأوامر عليا. دهشان خطير ويمارس الشر بكل أنواعه..

بعد قليل يفرغ من الحمام ويندفع إلى الفراش، ولا يمكننى أن أعتذر؛ سألحق به طائعة قبل أن يدعونى، وأتجه إلى حيث يستلقى فى الجانب الأيسر من الفراش، ليس برغبة ولاشوق.. اعتدت أن أفعل وأن أستجيب لإشاراته وإيماءته.. اعتدت أن أغمض عينى لأستمتع بالوجه المعلوم الذى ملك قلبى من قديم.. زهران الغانم. كم حاولت نسيانه بحكم الزواج والإنجاب، لكننى فشلت لتظل صورته ومشاعره مستمرة مقتحمة رغم بعده عنى وجهلى بمصيره عقب آخر لقاء فى الأورمان وهو مجند يرتدى البدلة العسكرية..

أرانى طائعة مغمضة العينين أدنو من الجانب الأيسر أجاوره.. أغلق النور وألاصقه دون شوق وبغير احتياج. أتساءل وهو يقترب ويشرع: كيف قبلت وخضعت طوال السنين الماضية؟! لم أتمرد مرة واحدة، ولا أعلنت عصيانى.

هل رضائى بالأمر الواقع كان وراء كتمان التمرد، وحجب العصيان؟، وجاءت الفتيات الثلاث تباعاً.. واحدة كل عام لأنشغل بالتربية والتوجيه والمتابعة والقلق على مصيرهن.. سنوات وسنوات حتى تزوجن جميعاً.. فبدوت أمام الجميع حولى زوجة صابرة صالحة لم تطلب أبداً المقابل والمكافأة، بينما كانت الأخبار تصلنى "عن نشاط" دهشان الحزبى؛ فهو عضو بارز فى مجلس الشعب يسعى إلى أن يتبوأ مكاناً بارزاً فى السلطة الحاكمة، و"عن مغامراته النسائية"، وكيف أنه يتنقل من امرأة إلى أخرى.. وقد نصحنى أبى العارف بالله رياض الذهبى أن أصبر وأتجاهل ما أسمعه عنه، فصمتّ.. لكنه تمادى وتمادى.. وإن كان يعود إلى الفيلاّ آخر الليل غالباً باحمرار عينيه، وبرائحة الخمر، وعطر المرأة الأخرى. كم همست لنفسى وهو يحتوينى: لا يشعر قلبى بك.. ولا تهمنى غرامياتك؛ فلست سيداً على روحى وفكرى.. لا يهم؛ فوجه زهران المضىء يملأ حياتى..

ـ دهشان الكردى

(١)

مضيت إلى غرفة الملابس وأنا أشعر ببرودة خدها الأيمن فى شفتى. الخد قطعة من ثلج بل جليد. لاحظت وأنا أقبل الخد شرود عينيها فى سواى. دائماً أشعر أن قلبها ليس معى.. منذ زمن بعيد وأنا لا أراها معى، ومع ذلك فأنا أظهر رضائى واقتناعى حتى أتبيّن حقيقة ما يجرى..

بعد أن فرغت من تبديل ملابسى قصدت الحمام.. تمددت فى مياه البانيو الأزرق.. انهالت على ذهنى أفكار وأفكار. لكن فكرة واحدة منها استحوذت علىّ؛ هناء لم تمنح لى قلبها فى أى وقت. هناء منحت غير القلب. "ذات مرة قالت: زاملنى بكلية التجارة شاب فقير وحزين أتوقع له مستقبلاً زاهراً ودوراً مؤثراً فى الحركة الوطنية. رغم أنها لم تذكر اسمه، ونفت علمها بمعرفة أى شىء عنه منذ حفل

التخرج من الجامعة واستدعائه للتجنيد –فإننى أحسست دائما إن هذا الغائب قد ملك قلبها إلى الأبد"..

ومنذ ساعات مضت رصدت عيون أعوانى المراقبين جلوسها معه فى حفل "نادى التجاريين" بالبحر الأعظم. قال الأعوان: إنهما تحدثا على انفراد ومع آخرين انضموا إليهما. وأنه ترك لها بطاقته فوق المنضدة فالتقطتها وهى تبتسم.. كم أحسست أن قلبها لسواى!، وأكد أحد أعوانى: أن صاحب البطاقة هو النائب البرلمانى زهران الغانم.. غريمى الذى لا يكف عن مطاردتى.. "منذ ساعتين تسللت عائداً إلى الڤيلاّ قبل موعد رجوعى المعهود: الثانية صباحاً. فتحت الباب الخارجى فى العاشرة.. لم يرنى إلا مديرة الڤيلاّ سعدية علوان، وهى خارجة لقضاء الليل مع أسرتها فى حدائق القبة تنفيذاً لأوامر مدام هناء. فقالت سعدية:

– اعطتنى المدام راحة الليلة حتى صباح الغد.

منحتها خمسين جنيهاً وأوصيتها بأن لا تخبر المدام بعودتى المبكرة الليلة.

- لن أخبرها.. تأكد.. لن أخبرها.

صدقتها.. ووثقت فى أنها لن تتكلم. فأنا متأكد من ميلها وانتمائها إلى. وكم شاهدتها وهى تديم النظر إلىّ كلما غابت هناء عن نظرها هنا أو هناك.. لم أسأل نفسى إن كانت تتظاهر بالميل أو كانت حقاً تميل إلىّ. لم أسأل لأننى أحس أنها صادقة؛ فقد خبرتها منذ عشر سنوات وهى معنا، هى الآن فى قمة الشباب.. تدنو من الثلاثين. حين خرجت سعدية من الڤيلاّ دون صوت رأيتنى أصعد فى هدوء إلى الطابق الثانى. وتسللت كلص ماهر سبق أن عرف طريقه إلى "غنيمة ثمينة".. اقتربت من الغرفة المضاءة ووقفت بجوار الباب أسترق السمع.. كانت تتحدث فى التليفون بصوت حنون منخفض لكنه واضح مبين. طرق أذنىّ كطلقات رصاص قاتل؛ تتحدث إليه باطمئنان فموعد حضور دهشان لم يحن بعد. وقالت:

- التقطت البطاقة من فوق المنضدة، ولم أتردد فى الاتصال بك.
- .....
- لم أعد قادرة على التحمّل.
- .....
- صبرتُ كثيراً.. وطاقتى موشكة على النفاد.
- .....
- لا.. لم أحبه فى أى وقت من الأوقات.
- .....
- منحته غير قلبى.. وأنجبت ثلاث بنات هن الآن متزوجات.. وأنت؟
- .....

طبعاً لم أسمع صوت المتحدث لكن كلامها دل على أنه "زهران الغانم"؛ فخفق قلبى بمقتها وكراهيتها. ووقر فى نفسى قرار بإزاحة زهران من طريقى"..

لم أكن أظن يوماً وأنا أسمعه فى جلسات مجلس الشعب أنه غريمى الذى كم شعرب به كلما دنوت من هناء، وكم تذكرت قولها عن زميل لها تعمدتْ عدم ذكر اسمه: إنه مفكر وفقير ومحارب ومهموم من أجل البلد، وأنها جاهلة بمصيره، وغير مكترثة برؤيته. رغم احترامى لخصوصية ما لديها من معلومات فإننى رغبتَ أن تذكر اسمه. وتعرّفنى أين هو الآن، لكن رغبتى كانت تتضاءل وتتلاشى بمرور الزمن..

هاهى تحادثه، وهاأنا ذا أسمعها وقد أكدّت عيون أعوانى شخصية مَن حاولت هناء إخفاء اسمه عنى: "زهران الغانم". غريمى فى المجلس، ومنافسى فى لجانه. ومن الضرورى الآن إزاحته والقضاء عليه. وصحت فى نفسى: كيف وصلت الاستهانة بى إلى هذه الدرجة؟!، لم يبق إلا أن تدعوه إلى القيلاً أو تذهب إليه..

وقلت فى نفسى: هاهى تتظاهر.. وكم تظاهرت بالرضا والسعادة، وعليك أن تتظاهر مثلها بالرضا والسعادة، حتى

تتكشف الحقيقة وتصل إلى اليقين.. عالج الأمر بهدوء ودون صخب أو ضجيج. فبناتكما الثلاث زوجات لشبان يحتل آباؤهم مراكز مرموقة فى الدولة، ولديكما أحفاد صغار لهم أصدقاء صغار مثلهم، واسمك فى الحزب محفور فى الآذان، وصوتك عال وجهورى يعرفه أعضاء الهيئة العليا للحزب ويعرفه أعضاء المجلس. دهشان الكردى. أكبر تاجر حديد فى السبتية. لك صلاتك المعلنة وعلاقتك الخفية برجال أعمال ليسوا من وطنك، العمل العمل، والرزق غير مقصور على مكان واحد أو شخص معين. وإذا لم يعجب الخصوم سياستك المعلنة والخفية فليذهبوا إلى الحجيم..

أعلم أن زهران الغانم يفتش ورائى ويحصى معاملاتى الخفية. وما من جلسة فى المجلس إلا ويعرّض بى. لم أحبه يوماً رغم جهلى بأنه "المخلّص" الذى ترى هناء فى ظهوره الأمل والرجاء. منذ ثلاثة أعوام دخل "مستقلاً" فى المجلس الجديد. لا يكاد يسمع عنه أحد. هل كانت هناء تعلم ببزوغ

نجمه وتردد اسمه؟، وقلت هامساً وأنا أغادر مكانى متسللاً إلى باب الطابق الثانى بينما واصلت كلامها معه بالتليفون. همست:

- لابد من إزاحته والتخلص منه. هناك ألف طريقة وطريقة للتخلص منه دون أن أترك ورائى أثراً.

توقفت أفكارى، وخواطرى بإدراكى أننى مازلت ممدداً فى مياه البانيو الأزرق. أزالت المياه إلى حد كبير - أثار السكر والنعاس والخدر.. وبدلاً من أن أقف لأغادر البانيو والحمام آثرت التمدد فى الماء الدافئ، والنظر إلى أصابع قدمى تحركان الماء، بينما شعرت برغبة شديدة فى استمرار ملامسة مياه البانيو الأزرق.. لكن البقاء الدائم مستحيل وعلىّ أن أغادر فى نهاية الأمر..

(٢)

لمحتها عندما غادرتُ الحمام. واقفة فى نهاية الممر، تطالعنى بفستانها الأزرق الضيق المكشوف الصدر.. شعرت برغبة فى احتوائها، وتذكرت سنوات الزواج الأولى، وتذكرت

كم كان كل منا يبدى غرامه بالآخر.. تأملتها بغير شرود: فهمت نظراتى وبادلتنى بنظرات مستجيبة. لم يحدث أن تمنعت طوال السنوات الماضية، ولم يخطر بذهنى مرة كلامها عن زميلها القديم الذى ربطتها به علاقة زمالة وصداقة.. فأقبلُ عليها وتقبلُ عليّ، وتشعرنى فى كل مرة أننى فارسها الوحيد.. لكن رغبتى الآن سرعان ما باخت وتسربت بما عرفت وسمعت وتأكدت فى اللحظة التى تخففت فيها من ثيابها واقتربت. فلن أكون الليلة الفارس الوحيد. كيف يمكن أن أقبل؟! حقا دهشان قاس عنيف، شديد التحمل، لكن قلبه قلب بشر..

تأملت: هل حقا أثرتُها وهى تقبل عليّ لتسلتقى وتلاصقنى؟، أم أنها مستثارة بزهران الذى كان يهمس فى أذنيها منذ قليل؟، هل أسرى صوت زهران الدم الدافئ فى العروق حتى توترت؟ الآن تحتاج هناء إلى الاحتواء. وقال فى نفسه بحسرة: حركها التوتر العاطفى وأقبلت علىّ، فهل يمكن أن يقبل دهشان الكردى؟!..

تابعتُها وهى تتهادى تجاهى يسبقها عطرها المفضل الذى يقطن زوايا أنفى رغم اختلاط سنوات الصفاء بسنوات الجفاء والاندماج فى حياة العبث والسكر، وكم قلت لنفسى:

- هناء معى وليست معى، عيناها فى عينى لكننى أشعر أنها لا ترانى؛ شاردة دائماً رغم إقبالها علىّ واستجابتها لى.

وقد تواصل قولى لنفسى لسنوات دون مصارحة أو اعتراض.. وعقب كل تساؤل كنت أحتويها وتحتوينى بهمة ونشاط دون ملل بل كانت الضحكات الصغيرة، والوشوشات الناعمة، والهمسات الدافئة تعلو فضاء الفراش الوردى الذى أهواه، لكننى عقب الأداء الحميم أعود إلى التفكير فى سر شرودها، وأهمس لنفسى بحسرة: أعلم أنها لا تكف ولن تكف عن التفكير والشرود فى زهران الغانم الذى يواصل مطاردتى فى المجلس، فيتصدى دائما لمقترحاتى وآرائى، والتهوين مما أعرض وأقترح.. كم فكرت فى إزاحته من طريقى؛ يسطع نجمه يوماً بعد يوم، فكيف يمكن إزاحتك والنيل منك؟.. الآن

أراك فى بيتى طوال الوقت: فى نظراتها الشاردة وابتساماتها الناعمة.. لابد أيضا من إزاحة هناء؛ فدهشان لن يقبل ولن يوافق ولن يهدأ إلا بإزاحة سريعة وحاسمة بتدبير محكم، وتخطيط أكيد لتنفيذ ما أريد. كيف يمكن لدهشان الرضوخ وتقبل الهزيمة؟. "مرة فاجأتنى هناء قائلة عقب أداء غير حميم:

- كلمتنى عنك صديقة أثق فيها.. رأت بصحبتك بمطعم خرستو بالهرم فتاة شابة جميلة سافرة فى العشرينات تقريباً.

لم تستمر مفاجأتى، فسرعان ما نفيت قائلا:

- شائعة مغرضة. لا تستمعى للشائعات المغرضة.

وأضافت وأنا أهم لإدارة ظهرى للنوم.

- الواقع أنا لا أشعر بك منذ فترة طويلة.

فعقبتُ قائلاً:

- وأنت دائما شاردة منذ فترة طويلة، أرى شرودك وأشعر به.

لم تعقب هناء على قولى. صمتت. لكن قلب دهشان لم يصمت؛ اجتاحتنى خواطر مؤلمة أسهدتنى. فكرت فى أنها يمكن أن تكيد لى بغريمى، وربما تعلن رغبتها فى التخلى، وتجاهر بالعصيان وتطلب الطلاق لأكون مادة للصحف المعارضة والمستقلة: فهاهو عضو الحزب الحاكم يخون، وها هى زوجته تطلب الخلع لتقترن بغريمه المناوئ عضو المجلس المستقل.. وتصبح بناتكما الثلاث مضغة فى الأفواه.. "مرة زارنى بالمكتب عمر الكيلانى النقيب بمباحث أمن الدولة.. زوج ابنتى الكبرى ابتسام وقال فى تردد وحرج:

- وردت شكوى بمعلومات عن علاقتك بشابة فى عمر ابتسام. وأرسل إلى خصومك صور جلسات بخرستو وباستراحتك بالعين السخنة.

صمت عمر قليلاً واضاف.

- الواقع يا عمى أنا فى حرج شديد.. يبدو أن خصومك يلاحقونك.

بهتُّ ولم أستطع النفى. لم أعلق. أطرقت قليلاً ثم رفعت رأسى متاملاً فى مرآة كبيرة فى الحائط تواجه مكتبى؛ الوجه ممتقع مربد، والعينان محملتان بالنكد. وودت لو يغادر المكتب دون إبطاء.. أدرك عمر مشاعرى ورغبتى فانصرف دون كلام"..

(٣)

الآن لم يعد بمقدرتى التهرب أو الإخفاء، لابد من إجراء يخرس الألسنة ويحمى البنات.. هل اقترن بأنغام الشابة التى وصلت إلى القلب وتمكنت منه؟. أيمكن التخلى وطرد وجودها من حياتى إلى الأبد؟. الواقع أنك تحب الفتاة، وحافظت على نقائها رغم تعدد اللقاءات، وأنك كم فكرت فى الاقتران بها بزواج علنى أو سرى، ولكن العشرين دائما تردع وتحول وأنت فى الخامسة والخمسين. التجربة غير مضمونة وليست مأمونة العواقب.. "مرة قلت لها:

- أنا أكبر منك بخمسة وثلاثين سنة.

- فبادرتْ إلى القول.
- سأحبك وأخلص لك حتى لو كنت أكبر منى بمائة سنة..

وقلت فى نفسى وقتها: كلام جميل، يشرح النفس، وينعش القلب، ويزيل من الأفق أشباح الحزن، ويقصى هجمات الهموم، وينسى ثورة البنات الثلاث يساندون "ماما" العزيزة المحبوبة.. وهتفت وأهتف الآن بصوت مكتوم:

- عاصفة.. البنات والأقارب والأصدقاء والخصوم عاصفة متوقعة، ويجب الاستعداد للمواجهة"..

توقفت خواطرى للحظة ثم أستأنفت بهمس خالطه الإصرار والقلق. كيف سأواجه العاصفة وأتزوج من "أنغام" فى زواج سرى أو علنى؟.. وكيف أتخلى عن "هناء" التى كانت فاتنة ومازال؟. هناء كم واجهت بثبات أطماع الطامعين وتجاهلت النظرات الجارحة المعرّية، وكم رأيتهم وهم يتطلعون إليها دون كلل أو وَهَن. أنجبت هناء البنات وأحسنت التربية،

وساندتنى ولم تخن. شاركت فى مسيرتى العملية والمالية دون طلب مكافأة، ورغم اطلاعى أخيرا على عودة علاقتها بزهران الغانم فإننى واثق من حكمتها وصلابة إرادتها..

أطرقت واضعاً رأسى بين يدى وفكرت: لكن كيف أتخلى عن فتاة شابة جامحة ومقتحمة وفتية؟. أنغام ملفوفة القوام، مشدودة الصدر، ناصعة الوجه، بيضاء كاللؤلؤ، وعامرة بالأنوثة. فكيف أتخلى عن جمال وضعه القدر فى طريقى ولم أسع إليه فى هذه المرحلة من عمرى؟!. ليس الزواج من أخرى جريمة.. نعم ليس جريمة، وليضربوا جميعا الرؤوس فى الحوائط والجدران مادمت لم أقصر فى حق هناء والبنات..

لكن القلق يساورنى بين الحين والحين عندما أهم بالتنفيذ: "دعيت إلى منزلها ذات يوم.. ورغم حفاوة الاستقبال الذى لمسته من أمها الشابة التى توفى زوجها منذ عامين، وأخوتها الذكور الثلاثة، أكبرهم فى العاشرة – فإننى اغتممت قبل أن أغادر؛ جاء شاب وسيم قالوا إنه جار يرعى شئونهم

بعد وفاة الأب.. لاحظت بعينيه وهو ينظر إليها شوقاً ولهفة وتساؤلاً.. حقاً خرج قبل أن أغادر لكن نظراته إلى أنغام ظلت فى رأسى لا تخبو ولا تغيب"..

هاهى نيران القلق والرعب والغيرة تتداح فى قلبى، وتتملك عقلى؛ أنا فى الخامسة والخمسين وأنغام فى العشرين، وهاهو الجار الشاب يستوطن رأسى بابتسامته الواثقة المطمئنة.. بينما أشاهد بعينى زهران الغانم بابتسامته الواثقة المطمئنة..

ـ زهران الغانم

(١)

شاهدتها تخطر فوق أرض "النادى" تعلو شفتيها القرمزتين ابتسامة صافية.. تقصد بخطوات ثابتة منضدة مطلة على النهر فاهتز قلبى، وثارت خواطرى.. لكن ما إن استقرت فى مقعدها حتى شردت وبدا فى نظراتها همّ أعلم سببه. قلت فى نفسى بحنان: أقرأ أفكار هناء.. دائماً أقرأ أفكارك. وأتفهم حيرتك.. وكم قلت لنفسى إن قرارى بالتخلّى عندما علمت بنبأ احتمال خطوبتها سوغه دائماً فقرى واحتياجى، وقلة حيلتى، واستدعائى للتجنيد بعد ستة شهور من هزيمة الوطن فى يونيو ٦٧.. استرحت إلى قرارى واختفيت لكنها لم تغب عن ذهنى. وكم صحت بصوت كلما خلوت إلى نفسى فى مواقع الخطر بجبهات القتال:

- كيف يمكن التفكير فى الزواج ووطنى مهزوم يطالب أبناءه بتحرير سيناء؟.

رغم صياحى فى خلواتى - لم أستطع وقف إحساسى بندم عنيف تملك عقلى وقلبى: فرّطت فى كنز آل إلىّ ذات يوم لم أبادر بالاستحواذ عليه منذ إعلان نتيجة البكالوريوس يوليو ١٩٦٧. أدركت لحظتها أنها تخصّنى ولن يحرمنى منها منافس أو غريم.. لكننى اكتفيت بمتابعتها وإحاطتها بسياج من الحرص والخوف..

كلما سمعت عن شاب يسعى للزواج منها - هرعت إلى أفكارى وخواطرى أجلد فيها نفسى لأننى لم أبادر بخطبتها.. وكم حزنت وأنا أرانى عاجزاً عن التصرف؛ فمحال أن أتقدم وأنا مجنّد فقير، ومعرض فى أية لحظة لخطر الموت أو الإصابة على جبهات القتال..

سمعتنى أقول: مهما سوغت التخلى فإننى قد قصّرت؛ فلم أواجه وأتقدم وأحاول وأجازف؛ فهناء تستحق المجازفة

وإعلان المحاولة حتى ولو باءت بالفشل. المهم أن يعرف الجميع أنك حاولت. أنت تنقصك الجرأة.. اعتصمت بالعقل.. والاعتصام بالعقل مع "القرارات العاطفية" لن يؤدى إلى نتيجة ترضى عنها هناء الذهبى؛ لأنها تملك عاطفة الجرأة والصراحة.. هل تذكر يوم أن جمعتكما جلسة اتحاد الطلبة عام ١٩٦٥؟:

"تحدثت هناء بصراحة وطلاقة لسان. تفوقت على جميع الحاضرين. فكرت يومها فى أن القضايا التى تتكلم عنها شائكة للغاية.. تحدثت عن مساوئ الحكم الدكتاتورى، وعن أن الوطن موشك على الانهيار، وأن الزيف يسود كل شىء، وأن الإصلاح بكل صوره لا يتحقق إلى بحكم ديمقراطى.. و.. فكرت فى أن هذه الفتاة الجميلة ذات الشعر الأسود والعينين العسليتين معرضة لخطر أكيد.. خفتُ عليها.. وهرعت إلى التدخل بامتداح مسيرة الوطن الذى نشعر فيه بالعزة والأمان. كان لابد من التدخل أملاً فى أن أخفف من آراء هناء؛ ففى

المجلس وكل مجلس عيون وآذان تترصد وتتربص بتقارير تؤدى إلى الاعتقال، وربما إلى الإخفاء الأبدى، ولكى أزيح عنها الخطر المحدق أضفت برقة وابتسامة:

- الشعب فى الوقت الحاضر لن يواصل الرقى إلا بمزيج من الدكتاتورية والديمقراطية.

فهبت وصاحت غاضبة:

- لا يجوز الجمع بين الاثنين. لابد من العمل على إقامة حكم ديمقراطى.

فعقبتُ بهدوء:

- المسألة تحتاج إلى تدرّج وتهيئة و..
- هذا سبب تأخرنا عن الدول الناهضة.

فقلت دون أن تفارقنى الابتسامة:

- يمكن المجابهة بالرأى فى الوقت المناسب.. والمكان المناسب..

بدت لى أنها اقتنعت فلم تواصل.. ورأيتها تدقق فى ملامحى بنظرة حملت معانى الامتنان والارتياح والموافقة.. فشعرت بأن ثمة استجابة تهادت إلىّ واستقرت فى عينى وقلبى، وأننى بحاجة إلى توثيق صلتى بهناء الذهبى"..

(٢)

هاهى الآن بعد مرور ثمان وعشرين سنة على آخر لقاء بالأورمان فى يوليو ٦٨ - تبدو متورّدة متوهجة فى "حفل نادى التجاريين". بدت لى شابة رغم الخمسين. دققت فى الوجه المحبوب وهمست: يبدو أنك قدرت تقاعسى عن المنافسة. فلا أرى فى عينيك لوماً ولا عتاباً ولا غضباً من انقطاع أخبارى عنك طوال السنين الماضية، لا سيما إذا تأكدت منّى الآن أنك لم تفارقى خيالى يوماً؛ سكنت يا هناء فى وجدانى وعينى، ولم أقنع بسواك رغم زواجى الذى أثمر أربعة ذكور يشغلون وظائف مستقرة، كما لم تفارقى خيالى وأنا فى جبهات القتال وخلال عملى بالكويت بعد حرب ٧٣..

كم سعيت لأخذ مكان تحت قبة البرلمان مستقلاً أنادى بتحقيق العدالة، وأناوئ خصومى الذين دأبت على الكشف عن إضرارهم بمقدرات الوطن.. كيف يمكن أن أنسى حلمى المنشود الذى رافقنى فى حلّى وترحالى.. فى غربتى وحضورى؟.. مازال الحلم ياهناء يتوطّننى ويسرى فى دمى.. اقترن حلمى المنشود بجهادى لإقرار العدالة، وبصراعى داخل المجلس وخارجه من أجل أبناء دائرتى بالبدرشين، بل صراعى من أجل الدوائر الأخرى.. وضد نواب القروض والفساد فى عدد من الإدارات..

كم صرخت تحت قبة المجلس بأننى سأستجوب أى مسئول فى البلد مهما علا قدره، وارتفعت مكانته، وسمت منزلته. ففتحتُ بكلامى عن الفساد أبواب جهنم.. وحاولت أن تستدرجنى صحيفة "الوعى الوطنى" المستقلة واسعة الانتشار للحديث عن صراعى مع رجال أعمال فاسدين لهم صلات

ببعض النواب فلم أغال فى قولى، ولم أزد حرفاً عما قلته تحت قبة البرلمان..

هاأنا ذا فى السنة الثالثة للدورة البرلمانية وقد عرفت ما كان خافياً علىّ وغامضاً أمام عينىّ. ثمة صفقات غير معلنة تجارية وسياسية والضحية الناخب الذى وثق فى نائبه ومنحه صوته. رأيتنى بعد العام البرلمانى الأول مسلحاً بمعرفة كافية وخبرة مناسبة؛ فتكلمت وأحرجت نواباً ووزراء، فصرت "فزّاعة" يخشاها المتورطون والمناوئون الذين يقودهم النائب دهشان الكردى.. هل أوقف حربى معه لمجرد أنه زوج هناء الذهبى؟!، لا أظن أننى سأفعل؛ لن أوقف نضالى ضد دهشان الكردى وأمثاله..

أعلم أن المجابهة سوف تكلفنى الكثير من وقتى وجهدى، وربما تكلفنى حياتى. أعلم أن موج العاصفة عالٍ جداً، ولكننى سأصمد؛ فعندى تاريخ من التحمل والصمود. مازالت صور حرب الاستنزاف فى ذاكرتى. ومازال العبور

الجزئى يملأ عينى، ومازال العبور الكبير فى ٦أكتوبر يتجلى فى أوقات شدتى وحزنى وقهرى، ومازلت أتحسس ساقى اليمنى الصناعية البديلة عن ساقى التى بترتها شظية يوم العبور وأنا أسقط العلم الإسرائيلى لأرفع علم وطنى. حاربت ست سنوات لتحرير سيناء..

تغربت بعد الحرب للعمل بالكويت خمسة عشر عاماً لرفع شأن وطنى.. وشاركت بعد عودتى بمال ادخرته فى إقامة مصنع ملابس جاهزة بالبدرشين فألحقت به فتية وفتيات كانوا عاطلين بلا عمل. وفى الوقت الذى سبقنى فيه أقرانى فتبوأ بعضهم المراكز الرفيعة فى الدولة، - صار البعض الآخر رجال أعمال مرموقين فضلاً عن نجاحهم فى دخول مجلس الشعب عن الحزب الوطنى، ونمت أعمالهم وتشعبت وصاروا من أصحاب الملايين، دون أن يدفعوا ثمناً فى حرب أو جهاد.. يتحركون أصحّاء مكتملين لم ينقص منهم أى جزء من أجسامهم.. ولما رأيتهم يتحكمون فى مقدرات الوطن قلت

فى نفسى: خرجت من الحرب بساق واحدة، لكن عوضنى الله بالسفر والزواج والأبناء وجمع المال.. ولا يمكن الاطمئنان لهم دون مواجهة منظمة، فرشحت نفسى مستقلاً فى دورة ١٩٩٠، ففزت بناخبى البدرشين: قريتى التى تشهد الآن انتعاشاً ملحوظاً، وقلت إنها الحرب مستمرة على من ينعمون بتضحيات أبناء جيلى، وفقْد ساقى، ولابد من إسقاط كل فاسد يحتمى بالحصانة؛ فتوالت "الاستجوابات" التى أقلقت الفاسدين.. وهلل لها المنصفون..

(٣)

هاهى الآن تواجهنى بعد مرور ثمان وعشرين سنة على فراقنا بسبب تجنيدى فى يناير ٦٨. وبمناسبة حفل خريجى التجارة دفعة ٦٧: تعاتبنى بعينيها على تقاعسى عن التقدم لخطبتها، وتلومنى بفمها القرمزى لانقطاع أخبارى عنها طوال سنوات تجنيدى، وغربتى فى الكويت، ومع ذلك أضافت كلاماً

أثلج صدرى عن قلقها حين تستمع إلى أنباء كل غارة على مواقع جبهات القناة، فتساءلت: هل يمكن أن أحوز أخيراً على الكنز الموعود؟، وقلت فى نفسى: لايمكن أن يستمر العتاب ويتواصل اللوم لو عرفت منى أنها لم تفارق خيالى يوماً.. أنت فى وجدانى وعينى ولم أقنع أبداً بسواك. تزوجتّ وأنجبتّ ولم أقنع بحياتى الزوجية رغم الأبناء الأربعة.. كيف لا أقنع ولا أسلم بما قدر لى؟، وكيف أنساك وأنت حلمى المنشود الذى رافقنى فى سنوات عمرى السابقة، ومازال متوطناً فى قلبى وذهنى، وسارياً فى دمى؟..

لازمتنى صورتها رغم علمى من أكرم الدهان شقيق نجاة أن صديقتها هناء الذهبى قد اقترنت بابن أشهر تاجر حديد فى السبتية، وأنها تقطن الآن فى ڤيلاّ بالتجمع الخامس، وأنها أنجبت ثلاث بنات، وأنها بدت مستقرة فى أول الأمر، لكن ما لبث "أهل الخبرة" أن رأوا أن الاستقرار ظاهرى، فهو مجرد قشرة فوق غليان غضب وانفجال حزن، وقلق همّ ثقيل،

"وقال أكرم الدهان ونحن فى الموقع المطلّ على مياه القناة عقب اشتباك مدفعى عنيف:

- لا داعى لأن تضيّع الوقت فى التفكير فى حب امرأة صارت لسواك، لن يغيّر "حبك" من الأمر الواقع المستقر.. تزوجت هناء وانتهى الأمر.. و..

رغم قسوة كلامه لم أسلّم بالنسيان، ولا دلّت تصرفاتى على التسليم به. سكتّ طول الوقت عن الحديث عنها، ولكن شردتّ طول الوقت فى تفاصيل صغيرة، وكلمات صدرت عنها.. ومرة فكرتُ فى الاتصال بها عن طريق نجاة لكننى تراجعت خاصة بعد أن عرفت من أكرم أن هناء ضجرة من ملاحقة زوجها ومراقبته لها وتضييق الخناق عليها.. فوأدت المحاولة. فهى زوجة وأم صالحة. لن تقبل أن تسيىء إلى "رابطة الزواج المقدس" حتى لو كانت علاقتها بدهشان هشة وواهنة.. أعلم أنها لن تضحى، ويكفينى أن تشعر بى - كما أشعر بها - طول الوقت، وأقدر أنها تنتظر الوقت المناسب

للإفصاح والإعلان. أعرف دائماً منذ القديم فيم تفكر هناء الذهبى.. ومرة قال أكرم الدهان بعد يوم من رجوعنا من عملية خاطفة خلف خطوط العدو بسيناء، وكان الحديث قد جرّنا إلى الثناء على هناء الثائرة:

- كم سمعت هناء وهى تصف تحرير سيناء بأنه واجب مقدس.

أضفت معززاً كلامه:

- صوتها لم يفارقنى وهى تتحسّر على الهزيمة الفادحة المدوّية فى حرب يونيو ١٩٦٧، ودائماً ما رددت أمامى وأما غيرى: لا يمكن الإحساس بالراحة إلاّ بتحرير سيناء من أيدى الغزاة".

(٤)

غادرت مكانى ومشيت وسط الظلام متجهاً إلى باب الشرفة المظلمة التى تطل على "البحر الأعظم". بدت المياه عاكسة لأضواء ليل الثانية. وبدا لعينى غير بعيد "نادى

التجاريين" من جهة اليمين بحديقته الحافلة بأشجار الورود والزهور. "تذكرتُ ندوة سياسية حضرتها الشهر الماضى شارك فيها أساتذة سياسة واقتصاد مرموقون، وكان يصحبنى أكرم الدهان. يومها خيمت "تغمة" تشاؤم على الشأن المصرى الاقتصادى مقارنة بالشأن العالمى. وقال صوت لا يمكن الشك فى وطنيته:

- الإصلاح الاقتصادى الجاد رهن بمن يحب الوطن ويعمل لصالحه. وأغلب المسئولين عن الملف الاقتصادى رجال أعمال لهم مآربهم الشخصية حتى يزدادوا ثراء على حساب نهضة الوطن واستقراره.

وارتفع صوت تناول علاقات تجارية لعدد من رجال الأعمال مع إسرائيل رغم عدم "التطبيع".. وتطور الحوار إلى أن "البلد" مليئة بجواسيس الموساد الذين يصفون جسدياً بين الحين والآخر صفوة رجال العلم والسياسة والاقتصاد..

وتطور الحوار أكثر إلى "اتفاقية كامب ديفيد".. لابد من النظر فيها لتعديلها أو إلغائها. وجهر آخر بقوله:

- اتفاقية كامب ديفيد لابد من إلغائها.. إسرائيل تحاربنا فى الخفاء وبدبلوماسية هنا وفى إفريقيا حيث منابع النيل. كيف يمكن السكوت على تحركات الدولة العبرية؟.

فقاطع صوت حانق:

- لكل شىء ثمنه. وللصمت عنه ثمنه.

فرد صوت فى نهاية القاعة:

- ماذا تقصد؟.
- أقصد ماهو مفهوم من كلامى.
- أنت تتهم الدولة.
- بل أتهم ذوى المصالح الشخصية. والغريب أن الدولة غافلة عما يجرى من ورائها. أو هى غير غافلة ولكنها عاجزة عن التصرف أمام ضغوط أمريكية ودولية متنوعة.

رأيتني أتقدم من "المنضدة" وأبدى رأياً بصوت حرصت على أن يكون غير انفعالي:

- جميع الأراء التى سمعتها مجرّدة من "الأمل" و"التفاؤل". سيطر التشاؤم علينا، ولابد من "التوعية" المتصلة لا المؤقتة. لجان محدودة تفحص وتحلل.. وفى النهاية نحذر وننذر، وعلى الجميع أن يطرحوا على أنفسهم هذا السؤال: إلى متى الخنوغ والخضوع والقبول بالأمر الواقع؟!

ما إن عدت إلى مقعدى بالصف الثانى مجاوراً أكرم الدهان حتى قال بصوت هامس:

- لا فائدة.. الجو العام يدعو إلى اليأس والتشاؤم.

فعقبت بصوت هامس أيضاً:

- وما الواجب علينا؟.

- أن نعذر، ونقدر، وننتظر".

انصرف ذهنى إلى أفكار معاكسة لنصيحة أكرم الدهان. انصرفت من القاعة بغير جسمى إلى هناء عقب نكسة ٦٧ المريرة: "كنا فى الأورمان قبيل ظهور نتيجة البكالوريوس. قالت بعصبية معلقة على مايجرى فى أروقة مجلس الأمن والأمم المتحدة بخصوص إعادة مساحات من الأراضى المحتلة فى مقابل الاعتراف بإسرائيل:

- لا يمكن القبول بأنصاف الحلول.. يجب تحرير جميع الأراضى التى احتلتها إسرائيل فى الحرب.

ثم سكتتْ برهة. وقالت:

- رغم اختلافى مع عبد الناصر فإننى أستعير كلمته الحاسمة الآن. "ما أخذ بالقوة لا يسترد بغير القوة"..

لو حضرت هناء ندوة النادى تلك الليلة لاشتعلت القاعة بنيران التصادم. وربما أدّى الأمر إلى المحاسبة، أو الاعتقال؛ فالعيون الراصدة فى كل مكان تراقب وترصد وتسجّل، وتوصى وقد تقرر الإزاحة إلى غياهب المجهول..

ازداد شرودى وانصرف ذهنى إلى وجه هناء الذهبى الذى تجلّى فوق منصة الندوة بصلابته المعهودة، وعمقه المعروف، وشموخه المألوف، فنعمت باستحضاره، وتحمست لتغلب صوتها الثائر على الأصوات الأخرى. لكن سرعان ما غشينى الفتور، وغمرتنى الضغوط، فلم يكن ظهور وجه هناء الذهبى سوى ضوء برق خاطف، ولحظة تمنٍّ فى حلم يقظة. وما أكثر أحلام يقظتى كلما خلوت إلى نفسى، أو جلست وسط أسرتى وأصدقائى ومعارفى، وأثناء انعقاد جلسات المجلس وخلال فترة استجواب هذا المسئول أو ذاك، ووقت تفكيرى فى صراعى ضد دهشان الكردى وأمثاله من رجال الأعمال الذين يتسببون فى تقزيم الوطن.. ورأيتُنى أهمس بصوت مسموع صار مجلجلاً: كم أحن إلى رؤية هناء الذهبى. حان الوقت للحديث الصريح، والمكاشفة الواضحة، رغم احتمال التآمر، وتوقع المخاطر..

الصيام فى الوديان..

ـ ذكرى الباهى

(١)

فى جلسة الأحد الماضى بصالون ڤيلاّ السعادة.. ڤيلاّ هناء الذهبى جرت أحاديث النساء.. تناولتنى بكلام يشيد بخبرتى، ويثنى على جرأتى، ويشير إلى مهارتى فى التأثير على الطرف الآخر أثناء أحاديث "تليفون الغرام". قالت الدكتورة عايدة الكردانى:

- ذكرى الباهى خبيرة بتليفون الغرام.

وقالت ماتيلدا زخارى:

- شجعتنى ذكرى.. سمعت منها العجب، وعرفت الغرائب الخافية.

وعقبتْ:

- اتّزنت حياتى بمجرد أن استمعت إلى نصائح ذكرى.

وقالت نبيلة الوقاد:

- لولا ذكرى لأصبت بانهيار عصبى.

وقالت ماتيلدا:

- اجتذب تليفون الغرام فتيات وفتياناً وكهولاً، وعززت كثرة الاتصال التعارف، ووثقت الصلات بين المحرومين والصادقين، والكاذبين، والعابثين.. ذكرى حولت حياتى من صحراء قاحلة إلى جنة خضراء.

وقالت ذكرى:

- ما أحلى تليفون الغرام.. وما أروع أحاديث الهيام!

وقالت هناء الذهبى:

- الحديث فى "تليفون الغرام" مضيعة للوقت، وعواقبه وخيمة على المتحادثين.

لم تتعاطف نساء الأحد مع "عظة" هناء الذهبى؛ لا نريد أن يوقظنا أحد.. وقلت لنفسى: كيف أتخلى عن وسيلة جعلتنى أحب حياتى وأسعد من حولى، فلا أشعر بوحدة أو فراغ؟،

ومهما يحدث من منغصات فإننى سرعان ما أنسى بتبادل الكلام فى تليفون الغرام..

تعرفت فى نادى الشمس على عزيز البـــاجورى.. ثـــم تبادلنا رقمى التليفونين.. خفت فى بادئ الأمر وأنا أكلمه لكن اعتدت -رغم خوفى- على صوته المحمل بالعجائب والمسرات. حركنى فيض كلاماته وتدفقها. رأيتنى خاضعة منتشية بالكلام العذب الجميل.. وثقت به فأبديت رغبتى فى مقابلته.. لم يكن متسرعاً لأنه قال:

- أفضل الانتظار بعض الوقت.

فأسرعت قائلة:

- أحب أن أراك.

فقال بصوت رخيم:

- أنت ضوء بدد ظلمة حياتى..

فقلت وأنا فى نعاس لذيذ

- أحب أن أكلمك طوال ساعات اليوم.. أحـب أن أراك طوال ساعات اليوم.. فتشت عنك كثيراً..

وفجأة سألته:

- هل أنت صادق معى؟.
- نعم.. ونفذى ما أطلبه منك.

استجبت وأنا فى نعاس لنيذ... بل فى خدر لنيذ.. خاصة أنه أخذ يقول كلام مجرب خبير. ورأيتنى أواصل الاستجابة بالتليفون فى الأيام التالية دون تفكير فى العواقب المحتملة.. يكفينى أننى بحتُ لمن أحسن الإنصات إلىّ، فأحدث فى نفسى الشعور بالرضا والتوازن والانسجام.. وفى كل مرة عقب الكلام أهمس بعذوبة مراهقة.. ما أحلى تليفون الغرام!، وما أروع أحاديثه الساحرة!"..

عندما أضيق بشىء ومن شىء أفكر فيه بشوق وحماسة، فلم أعد أهتم بما يجرى حولى من مضايقات وتصرفات وأحداث يومية صغيرة أو كبيرة.. عيناى دائماً

على التليفون. أهرع إليه كلما شعرت بملل أو ضجر أو نفور.. المهم عندى هو الكلام المعسول، يدغدغ حواسى، ويطيب خاطرى، ويهدئ من توترى، ويربت برفق فوق مشاعرى المهتاجة، لكن بعد أن صارحنى عزيز الباجورى بحبه – الذى صدقته – ازددت تعلقاً بالتليفون.. صار عالمى كلما خلوت وحينما ينام الجميع، أو يغادرون القيلاً لشأن من الشئون.. ما أحلى تليفون الغرام! وما أروع أحاديثه!.. "مرة قلت لهناء الذهبى فى التليفون:

– الكلام يطربنى ويشجينى ويؤنسنى.. وهو ماهر جداً. حينما غمرنى بأحاديث مثيرة ومتنوعة ازددت تعلقا به وقويت رغبتى فى مقابلته فى أى مكان يحدده لى..

فردت هناء بصوت متزن ومتوازن ومفعم بالاستنكار ومتسم بالعظات الرادعة المحذرة:

– تحت يدك يا ذكرى كل سبل الراحة.. ولك زوج مثالى.. وأبناء ناجحون فى حياتهم.

- لم أعد أشعر بطارق الغمراوى.. منذ أعوام وأنا لا أشعر به. تبددت أحاسيسى نحوه، ونعمت بأحاسيس جديدة فجرها عزيز الباجورى.

فقالت هناء مستنكرة:

- كيف تتمردين على حياتك وأنت غارقة فى الثراء والنعيم، وحولك زوج محب، وأبناء ناجحون؟!.
- لم يعد طارق يرضينى، ولا أجدنى قادرة على إرضائه رغم إذعانى وخضوعى.

فعقبت هناء بحسم:

- اصبرى.."

سأصبر وأقاوم وأردع بداخلى كل صوت دأب على تحريضى، لكن لا أحد يطلب منى أن أكف عن تليفون الغرام.. أهرع برغبة عارمة إلى صوت عزيز الباجورى.. يحرك رغبتى إليه شوق لذيذ يتملكنى.. ما أحلى تليفون الغرام!..

(٢)

سمعت صوت قدميه تهبطان به الدرجات.. سمعت بالأسفل صوت باب الڤيلاّ يفتح ويغلق.. لست في وداعه.. مضى زمن طويل وأنا أسمع الأصوات دون أن أكون في وداعه.. اعتاد من زمن ألا أودعه عند باب الڤيلاّ.. وهو لم يعترض ولم يحتج ولا وجه لى عتاباً ولا لوماً.. أتذكر سنوات زواجنا الأولى وأنا أهرع لاستقباله عندما ينفتح الباب الزجاجى، وأنا أندفع إلى وداعه حين يهم بالخروج. كم هرعت فى الاستقبال والوداع شاعرة بالسعادة والرضا، وكم رأيته ووجهه ينضح بالبشر والرضا.. لم يكن أحد أو شيء يرغمنى.. فقط كنت أجد السعادة فى استقباله ووداعه. الآن ومنذ سنوات غير قليلة أصابنى الفتور ومنعنى الملل، وحجزنى الضجر؛ فلم أعد أستقبل ولا أودع زوجى طارق الغمراوى..

ابتسمت بارتياح؛ خلا منه الطابق العلوى.. نظرت فى ساعة الحائط تواجه فراشى بحجرتى الخاصة التى لا يشاركنى فيها طارق الغمراوى.. لا يجمعنا الفراش إلا عند أداء الواجب. ومنذ سنوات ولكل منا حجرة مستقلة، ونحن راضيان بدليل أننا لم نفتح الموضوع ولم نناقشه. وأولادنا الأربعة شبان بين الثامنة عشرة والرابعة والعشرين.. شبان لكل واحد منهم غرفة بالقيلاّ، ولكل منهم خصوصيته.. الآن خرجوا جميعاً لكلياتهم.. أولهم فى السنة الأخيرة بكلية الطب، والثانى فى الهندسة، والثالث فى الصيدلة، والرابع فى السنة الأولى بالتجارة.. مؤدبون، مهذبون، لا يتدخلون فى شىء، وكل منهم فى عالمه ووادیه.. والخادمتان فى الطابق الأسفل تعدان طعام اليوم..

غادر طارق الغمراوى إلى مقر شركته بالعبور.. لا يعود إلا على موعد العشاء فى العاشرة مساءً.. شركته ناجحة فى إنجاز المشاريع العمرانية بالقاهرة ومختلف المحافظات، والكويت وقطر والإمارات.. يثق المواطنون فى "الشركة

المصرية للبناء والتعمير"، ورغم تعرضها لاتهام -في بعض الصحف- بمسئوليتها عن انهيار عمارة الدقى منذ عام، فإن الشركة مازالت تقيم عمارات فى ضواحى القاهرة الجديدة، والجيزة دون منع أو حظر؛ فتصاريح البناء جاهزة وموثقة وأكيدة..

كم ناقشته، وكم اعترضت، وكم نقلت إليه آراء أزواج صديقاتى هناء، وماتيلدا، وعايدة، ونبيلة، وشويكار؛ فثمة خلل فى بعض الأبنية. ولكن سرعان ما ينفى ويطمئن ويقول:

- يحاول الخصوم دائما إن ينالوا من إنجازاتى.

فعقبت:

- يقولون إنك مدعوم بنواب من الحزب الوطنى، ولا يستطيع أحد أن ينال منك.

فقال طارق باستهانة:

- يحقدون على.. لأن شركتى ذاع صيتها وتجاوزت أعمالها حدود الوطن.

صدقته.. تناسيت ما سمعته من صديقاتى، ووقر فى نفسى أنهن يحسدن ذكرى الباهى على ماهى فيه من ثراء ونعيم.. ولكننى فى الشهور الأخيرة لاحظت تغيراً على هيئته وسلوكه: أطلق لحيته، وخلع بدلته، وارتدى جلباباً أبيض قصير الذيل، وراح يقضى أوقاتاً طويلة فى غرفته التى أخذت تمتلئ بكتب عن قضايا الدين والأديان الأخرى.. بل علمت من جارتى نبيلة أنها عرفت من زوجها أن طارق الغمراوى استقال من الحزب الوطنى وانضم إلى حزب "الهداية". تساءلت بسؤال صاحبنى لأيام وشهور فى مختلف الأماكن: ماذا حل بطارق الغمراوى؟!..

اتجهت إلى صورته المعلقة بجدار البهو الواسع.. الصورة كبيرة تتسم بالرزانة والوسامة، شعر سوالفه فضى مضىء، ووجهه خلت منه التجاعيد.. فى الخامسة والخمسين. الصورة حديثة التقطها الشهر الماضى وكبّرها وبرْوزها وعلقها

أكبر أبنائنا عادل الطالب بنهائى الطب: عادل أكثر تعلقاً بأبيه ويقاربه فى الشبه..

أتذكره الآن وأخوته الثلاثة: خرجوا جميعاً منذ ساعة. لكل منهم حجرة مستقلة وتليفون خاص وأصدقاء وصديقات.. وغالب الوقت يستخدمون التليفون، وأحياناً ألاحظ على وجوههم الجدية والصرامة.. وأنا لى حجرة مستقلة، وزوجى له حجرة مستقلة: نحن جزر منعزلة، لا تربطها طرق يتصل بعضها ببعض. نادراً ما يجمعنا غداء أو عشاء. منذ سنوات ونحن جزر منعزلة، ويبدو أن قاطنى الجزر المنعزلة مقتنعون وقانعون وراضون.. لكننى غير راضية بعزلتى. يسوقنى الشوق إلى التليفون حتى صار هدفى ومرادى..

استنشقتُ نسمات هابة من أشجار الحديقة وأزهارها وورودها؛ أنعشتنى النسمات العطرية، وحرضنى الشوق اللذيذ على الحركة.. ابتسمتُ وتحولت عن الصورة الكبيرة بالجدار

إلى التليفون: ينتظر الآن عزيز الباجورى أن أكلمه ليجمعنا الكلام والخيال.. فهمست لنفسى بصوت خفيض:

- حان الوقت للكلام لنسيان الهموم.

كم تحدثت إلى عزيز وتحدث إلىّ، ولما اقترح أن نلتقى وافقت.. استجبت. لكن ما لبث عزيز أن تدرج وتمادى فى طلباته.. طلباتُه تثير دواخلى وتدغدغ حواسى.. وتسقط الحواجز.. فهل صار عزيز الباجورى سيد الغرفة والفراش، وسلطان الحوار الدائر فى تليفون الغرام، كلما أخلو بنفسى فى ساعات من الليل وساعات من النهار؟. "مرة طلب أن يلتقى بى خارج الڤيلاّ:

- لا يمكن أن نواصل الكلام إلى الأبد.

- ماذا تقصد؟!.

- يجب أن نلتقى فى الخارج.

ارتجفت.. وهرعت إلى ڤيلاّ هناء الذهبى لأسألها النصيحة.. كنت غاية فى التوتر والاضطراب.. استمعت إلى

النصائح والوصايا بلا أذنين؛ فلم أسمع صوت أزيز طائرة عابرة أو سيارة مسرعة.. كنت وأنا أستمع إليها أفكر فى مكان اللقاء وتاريخه.. لكن حين احتوتنى غرفتى فكرت وهمست: الحق أننى سعيدة بصوت عزيز فى تليفون الغرام. لكن لا يمكن أن ألبى طلبه..

هاهو طارق يحضر الليلة دون كلام بجلباب أبيض قصير الذيل.. تجنب الحديث والطعام والشراب.. خلع الجلباب وارتدى جلباب النوم.. ونام، بينما اجتذبتنى غرفتى: فرحت وأنا ساعية إلى تليفون الغرام، لا أسمع إلا صوت عزيز الياجورى، الذى سأكلمه، وأكلمه، لكننى لن ألبى طلبه.

ـ طارق الغمراوى

(١)

وصلت فى العاشرة ليلا بعد يوم حافل بالعمل، وبلقاء كبار عملاء الشركة من مصريين وأجانب. لا أذكر أننى حضرت بعد العاشرة فى الأيام والسنوات الماضية. لا أحد فى انتظارى: لا ذكرى ولا الأولاد ولا الخدم. أين ذهبوا؟!..

خطوت نحو الصالة المضاءة فرأيتها واقفة بملابسها العادية وبغير زينة. منذ شهور وذكرى لا تتجمل ولا تستخدم المساحيق.. تجلس الآن أمامى بملابس محتشمة وبغير زينة.. أرتاح إلى رؤية وجهها الخالى من التبرج.. وإذا جمعنا لقاء حميم سارعتُ بعده إلى غرفة المكتب الخاصة بى: حافلة بكتب عن قضايا الأديان وخاصة الدين الإسلامى، فضلاً عن كتب التصوف والشعر الصوفى، وبعض الكتب السياسية المحلية والعالمية، وقد ازدادت أعداد الكتب وتزداد منذ أعوام

بفضل انضمامى إلى حزب "الهداية" الذى أوصلنى إلى مجلس الشعب الحالى..

أحمد الله كثيرا فى حضور ذكرى بأن منحنى القدرة على الجمع بين إنجازاتى المعمارية، ومعارف سياسية، وثقافة دينية اخترتها وقنعت بها دون ضغط من أحد، فمكنتنى من التدقيق فى كل ما يخص عمليات البناء؛ فمازالت عمارة الدقى تلوح لى كنذير يذكّر بأن العقاب الإلهى قادم قادم لا محالة. رغم أننى قدمت تعويضات مالية ضخمة، وتعهدت بالإنفاق مدى الحياة على كل من فقد عائلاً – فإننى مازلت أحمل بين جوانحى عبء خطأ ارتكبه موظفون ومهندسون فى الشركة أدانهم القضاء وحكم عليهم بالسجن المشدد.. وانصرفت إلى مساندة المحرومين، واستغرقتنى القراءة فى غالب اليوم دون ضجر أو ملل، وخالطت أصدقاء الخير وسعيت إليهم. "مرة جمعنى لقاء بخالد الصواف.. أكبر تاجر أقمشة بالموسكى فى

مطعم "الدهان".. ثم احتسينا الشاى فى مقهى "الفيشاوى".. قال وهو يتطلع إلى مكتبة صغيرة تواجه المقهى:

- قل لى ماذا تقرأ أقل لك من أنت.

فعقبت قائلا:

- الثقافة تبصر القلوب والعقول؛ فنرى كل شىء بعين الخير والحق والجمال.

- عرفت أنك تبرعت لحزب "الهداية" بنصف مليون فانتعشت أحواله المالية، ووزعت مبالغ على الفقراء، والمحتاجين.

- لا يبقى فى النهاية إلا أعمالنا الصالحة:

واقترح خالد الصواف عقب الفراغ من الشاى أن أصحبه إلى منزله بالقطامية للتعرف على أعضاء بحزب الهداية. قبلت.. غادرنا.. وفى أقل من ساعة كنت أجلس معه فى صالة واسعة تضم مقاعد جلدية مريحة.. ولم يلبث أن توافد أشخاص أخرون أعرفهم وأشخاص لا أعرفهم. أحصيت العدد: عشرة رجال..

بعضهم بلحى كثة سوداء، والبعض الآخر بلحى مخضبة بالحناء، والبعض الثالث بلحى خفيفة وتعلو جباه الجميع بقع داكنة هى علامات كثرة السجود. يعتمرون عمائم بيضاء، ويرتدون ملابس بيضاء قصيرة الأذيال، وتنضح وجوههم بسيماء بالطيبة والبشر والتفاؤل والصلاح..

استقبلونى بابتسامات صافية.. ثم أدينا جميعا صلاة المغرب.. ثم صلاة العشاء خلف كبيرنا خالد الصواف. وعقب الصلاة تسارعوا إلىّ وهنأونى على سرعة استجابتى بالانضمام إلى حزب الهداية الذى نعلق عليه الآمال فى تغيير الواقع السياسى المرير، وعلى مواقفى الوطنية ضد الفساد تحت قبة البرلمان..

(٢)

هاأنا ذا الآن أعود إلى منزلى مرتديا جلبابا قصيراً بعد شرائى أربعة جلابيب بيضاء قصيرة الأذيال.. أصعد إلى الطابق الثانى شارد الذهن فى لقاء القطامية الذى بصّرنى

وهدانى وطمأننى.. أعلم أنهم سيدهشون عند رؤيتى بالجلباب القصير، وحينما يروننى منصرفا عن عالمهم لأنعزل فى غرفة مكتبى. وسوف تزداد دهشتهم حين أطلق لحيتى، وأقاطع التليفزيون، وأفكر فى أنهم سوف يتساءلون ماذا جرى لطارق الغمراوى؟!..

هاهى ذكرى تنهض من مقعدها الوثير، محتشمة ومندهشة من جلبابى القصير، وبغير زينة. تمضى خلفى كالعادة بثوب محتشم.. قبل شهور كنت أحب أن تستعد بقميص بنفسجى أحبه... وبشعرها الذهبى الكثيف المنسدل على الكتفين المكتنزتين.. ومنذ أسابيع لم أعد أطلب.. بل لم أعد أرغب. وأفكر فى أنها ستسأل: ماذا جرى له؟.. ماذا جرى لطارق الغمراوى؟!..

خلعت جلبابى الأبيض القصير.. وارتديت جلباب النوم. لم أطلب العشاء، ولم أطلبها لا بالكلمة ولا بالإشارة: لم أرغب فى التحدث إليها، ولا إلى أى أحد..

مضيت إلى الفراش واستلقيت على ظهرى فى منتصفه.. تراءت لى ذكرى كشبح وهى تتحرك فى الغرفة جيئة وذهابا. لم أدعها كالسابق بالكلام أو بالإشارة.. استغرقنى التفكير فى أحداث اليوم: مطعم الدهان، ومقهى الفيشاوى، ومنزل خالد الصواف بالقطامية.. وأخذنى نعاس فرأيتنى استمع إلى أصوات أصحاب اللحى والجلابيب القصيرة البيضاء، وتداخل مع الأصوات صوت رخيم يتساءل بدهشة عن سبب انصرافى السافر عن زوجتى ذكرى، وإغماض عينيّ عن حقها الشرعى..

وفى نعاسى رأيتنى أشهد مناقشة ساخنة جرت بمجلس الشعب ضد النائب المستقل الجرىء النزيه "زهران الغانم" عضو المجلس.. رغم هجوم عدد من أعضاء الحزب الوطنى بآراء معادية لآرائه، فإننى أعجبت بالرجل الذى رن صوته فى القاعة ينادى بإعادة النظر فى حياتنا الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية.. وتطرق إلى سلبيات الفساد

الإدارى، والصمت على نهب أموال من البنوك، وضعف التعليم، والسكوت على تسقيع الأراضى بواسطة عدد من رجال أعمال أعضاء بالمجلس ورجال أعمال غير أعضاء به. كما حذر من الابتعاد عن جوهر الدين، وخلط الدين بالسياسة، أو دعوات البعض إقامة دولة دينية..

لم أوافق على مهاجمة الرجل؛ فأفكاره تتوافق مع تفكيرى فى الآونة الأخيرة، ولذلك سعيت إلى توثيق صلتى به. وهاأنا ذا الآن أغيب عن الوعى وصوته يجلجل فى قاعة المجلس، بينما غشينى ضباب كثيف حجبنى عن رؤية ذكرى وأبنائنا الأربعة..

جموح الهزيمة

ـ ماتيلدا زخارى

(١)

وقفت ماتيلدا فى الشرفة العريضة تتأمل قطرات ندى الأشجار المتساقط فوق أوراق زهور البنفسج المتسلقة، أدارت بصرها فى أنحاء الحديقة البديعة التنسيق للحظات. شهقت نسيم صباح ما قبل شروق الشمس المحمل بعطر الزهور والورود. بدت أشجار السياج الحديدى الداكنة الخضرة عالية وقاتمة تبدو للعين مثل حَّراس متحفزين للدفاع..

زفرت وشهقت مرات ومرات. شعرت بحسرة وهى تتابع نوال زوجة ناشد البواب وهى خارجة من حجرتها الواقعة يمين بوابة ڤيلاّ "البنفسج" الحديدية، تتحسس شعرها المنسدل الأسود الفاحم الطويل. لمحت على شفتيها ابتسامة رضا.. وبدا خلفها "ناشد" بشبابه وفتوته. رأته يلكز مؤخرة

نوال فتضحك بعذوبة، فضحك ناشد بصوت مجلجل. تابعت المشهد المثير من خلف عمودين متقاربين بالشرفة أخفياها عن ناشد ونوال. ابتعدت عن العمودين وجلست لتستقر فى مقعدها المحتجب بسور الشرفة فلا يراها أحد من أسفل. شعرت بضيق رغم الإثارة..

أدارت بصرها إلى شمال البوابة. حجرة السائق "ناجى" الذى يجلس فى مواجهة الشرفة وقد ثبت بصره عليها بجرأة وجسارة.. ازداد التوتر واشتعل الإحساس بالاحتياج.. انثالت على الذهن مشاهد ليلة أمس، وقبل الأمس.. لم يكن العزيز سامى موفقاً طوال الأمسيات.. بل منذ سنوات وسامى غير موفق.. لم أجأر بالشكوى لأحد. كيف أشكو والد أولادى الثلاثة الذين تجاوزوا مرحلة المراهقة؟؛ يجب على ماتيلدا أن تصبر وتصبر، ويجب أن تسمع النصيحة، وتستمع إلى النصح الصادر من بعض أصوات جلسة صالون الأحد. كلهن شاكيات: "قالت هناء الذهبى بعد أن استمعت إلى شكواى:

- يجب عليك أن تنسى.. فكرى فى مستقبل الأولاد.
- تعبت من التفكير.. أنا إنسانة وعندى مشاعر.

قالت هناء:

- اشغلى نفسك بالزيارات والتفكير فى الأولاد.

همست لنفسها: فعلت واستجبت. لكن بداخلى "شعور محرض" سرعان ما يتملكنى بفراغ طارئ، وبأغنية عاطفية تتهادى من هنا وهناك، وبمشهد غرامى فى فيلم تليفزيونى، وبكلمة ثناء أو نظرة إعجاب في الأسواق والمحلات وفى جلسات الأقارب والأصدقاء، وفى مناسبات بالكنائس التى أدعى إليها. هل أنا بحاجة الآن إلى حكمة هناء الذهبى، وأنا أرى صورة العزيز سامى وهو يبتعد عن الفراش، أو وهو يتحاشى النظر إلىّ لئلا يرى رغبتى الجامحة؟!..

غادرت الشرفة واتجهت إلى الداخل. مضتْ إلى الغرفة ولم يكن بالطابق العلوى أحد. اجتذبتها صورة "مريم العذراء"، معلقة على الجدار.. جلستْ فى الفوتية تتأمل الوجه الطيب

الباعث على الارتياح. توارى الشعور المحرض للحظات ولحظات، فقالت باستجداء وهى تديم التطلع إلى الوجه المطمئن المريح:

- ساعدينى يا عذراء ساعدينى..

وضعت رأسها بين كفيها ضاربة الأرض بقدميها عدة مرات، لكن "الشعور المحرض" ما لبث أن عاد؛ فبرقت فى ذهنها صورة "ناجى" يوم كانت تتسوق بسوبر ماركت مترو: "كانت تدفع عربة المشتروات، وكان خلفها ناجى مباشرة وهو يساعد فى رفع المشتروات إلى منضدة الخزنة.. اصطدم بها. اضطربت. حولت إليه وجهها فى صمت ولم تعترض..

عندما قاد ناجى السيارة وهى جالسة فى الخلف رأت فى مرآة السقف عينيه الجسورتين المثيرتين. أوقف السيارة بمنطقة شبه خالية فى طريق العودة. ثم اقترح أن تنتقل إلى المقعد الأمامى.. وافقتْ.. غادرت مكانها واستقرت إلى جواره شبه نائمة. حرّك السيارة.. ثم مد يده وأمسك بيدها. سحبتها

بعد لحظات، فمد يده مرة أخرى وقبض بقوة على كفها الصغيرة.. نظرت إلى وجهه ملياً ويدها فى يده، ثم همست لنفسها وهى ترتجف: أنا فى مشكلة الآن، وأرانى أندفع بسرعة تجاه فوهة حفرة مظلمة، ليس حولها أو بالقرب منها أى أحد"..

(٢)

نهضتْ من الفوتية ومشت نحو الشرفة. رأته. بمجرد أن ظهرت وقف فى همة توحى بأنه رهن الإشارة. لم يطل وقوفها؛ فسرعان ما تراجعت إلى الداخل، وعادت إلى الفوتيه تواجه صورة العذراء. قالت فى نفسها: أين سامى أين؟. لقاءاتنا الحميمة صارت مجرد ذكرى جميلة عزيزة المنال غير قابلة للتكرار.. كان سامى قوياً عنيفاً فأحبت قوته وعنفه.. لكن منذ سنوات ضعفت قوته وفترت همته.. ولا يمكن أن أبوح بالشكوى لأحد إلا لهناء الذهبى التى تحسن الاستماع. فتهدئ من ثائرتى كلما حاولت إعلان تمردى وعصيانى. "قالت لى مرة فى صالون الأحد قبل توافد الجارات:

- لا أوافق على إيذاء شعور سامى. والعلاج غير مستحيل.
- صبرت. صبرت. صبرت. ست سنوات وأنا أحترق.
- رغم الأبناء والأحفاد؟!.

فقلت لها واهنة:

- عندما يقبل الليل.. وحين تخلو الڤيلاّ أو تهدأ فيها الحركة تتكاثر خواطرى وينشط المحرض، فيزداد توترى، وأرى كل ما أشعر به يصب فى اتجاه واحد: جسارة ناجى وجرأته. كم أسعد بصورته وصوته، واهتز من بعيد بسعال دخانه.

فقالت هناء بحسم:

- لا تفكرى فيه. فكرى فى الأبناء والأحفاد.

فعقبتُ بصوت يستجدى بعض التعاطف:

- اعذرينى.. أفكر فيه بشدة. بصراحه أنا أحبه، وكم فكرت فى أكثر من حل للاقتران به.

ساد الصمت برهة ثم قالت هناء متسائلة:

- فكرت فى الاعتراف"؟.
- فكرت. بعد ساعة أكون فى الكنيسة.

قالت هناء بحسم:

- اطلبى الطلاق.
- قريبى.. والطلاق مستحيل، ولا يمكن أن أصرح بالسبب. لا يمكن أن أفضحه.
- أفضل لك من ارتكاب الخطيئة.

قالت فى نفسها وهى تنصت إلى النصائح والتحذيرات: لابد من الاستشارة. لابد من الاعتراف". ناجى الآن خطر علىّ ولكننى مازلت احتفظ به. لم أفكر فى طرده أو إنهاء عمله. ناجى وسيم جداً وخطير جداً. هل يمكن التخلص منه؟"..

(٣)

هبطتْ من السيارة التى قادتها بنفسها.. اتجهت إلى كنيسة العذراء بأرض الجولف، تعرف مقر "الاعتراف"،

أشارت إليه مرة صديقتها مارى. استمع إليها الكاهن جيداً.. تحدثت بحرية ودون إخفاء شيء من مشاعرها.. تحدثت عن سامى، وناجى، وأجابت على جميع أسئلته: قال الكاهن بصوت راق حنون:

- واضح أنك تقاومين، أنصح باستمرار المقاومة، ويمكن الاستغناء عن ناجى إذا عجزت عن المقاومة.
- تعبت من المقاومة، ولا يمكن طلب الطلاق.
- لماذا؟.
- لابد من ذكر السبب.. والسبب يعنى فضح المستور وكشفه. تعاتبنى عائلتى كلها إذا تحدثت عن السبب.

قال الكاهن بصوت مجلجل:

- إذن اصبرى ولا تتمردى.. واطردى "ناجى".. ناجى خطر عليك.

ماذا تفعل الآن؟، لا يمكن طرده وإبعاده. كيف تبعده وهى لا يمكن أن تتحمل غيابه؟، كيف تفكر فى طرده وهى

التى كادت أن تدعوه منذ أسبوعين إلى الصعود وقت أن خلت الڤيلاّ، وغاب البواب وزوجته داخل الحجرة؟.. حقاً لم ترتكب الخطيئة. لكنها تتمنى أن يحدث ما فكرت فيه ورغبته.. ناجى قوى ويفيض بالحيوية والرجولة، تنبعث منه رائحة قوية تفتقدها منذ سنوات. كم اهتزت بعطر تلك الرائحة التى صارت ذكرى عزيزة المنال. هاهى الرائحة تعود بقوة وتطرق أنفها بعنف. ماذا تفعل أمام هذا الخطر المحدق؟!..

(٤)

مضت بسيارتها فى جولة طَويلة. لا ترغب فى العودة إلى الڤيلاّ الآن على الأقل. كم تحدثت فى التليفون إلى هناء الذهبى. شعرت هناء بأن فى صوتها استغاثة الغريق. فدعتها إلى الحضور قبل أن تذهب إلى مسكنها.. استراحت ماتيلدا إلى دعوة هناء..

اقتربت من ڤيلاّ السعادة وهى تتساءل: هل أجد لديها الحل السحرى المنشود؟ دائما تساعد وتعين. تقترح وتنصح.

اقتراحاتها صائبة ونصائحها مخلصة. لم نجد فى أقوالها وأفعالها أى تعصب أو هوى. يقترن بهناء كلما تذكرتها – معانى الصفاء والبشر والتفاؤل والاطمئنان، لكن "ماتيلدا" فى نفس الوقت تشعر ببعض الأسى نحو هناء، وكم قالت لذكرى وعايدة وشويكار ونبيلة:

– هناء تتألم فى صمت ولا تفصح.

وكم قالت عايدة بصوت حنون:

– تسمع لنا وتستمع. ولا نعرف سبب حزنها الذى يتسرب من ابتسامة الرضا والاطمئنان.

دنت ماتيلدا من بوابة ڤيلاّ السعادة. دلفت منها إلى موقف السيارة المواجه للباب الزجاجى المحاط بالنحاس اللامع المشغول ثم قالت فى نفسها: أنا مملوءة بالخجل من التحدث عن مشكلتى؛ لأننى أشعر بأن هناء تخفى مشكلة أعمق وأخطر دون أن تفصح عنها ولو من بعيد، ويشق علىّ فراق سامى، فهل يجب الصبر لانتظار معجزة موعودة..

ترجلت من السيارة واتجهت إلى الباب الزجاجى المغطى بالنحاس المشغول.. ضغطت الجرس فانفتح الباب. اتجهت إلى الصالون تتوسطه هناء الذهبى. أسرعت إليها بخفة ونشاط. استقبلتها محتفية ومحيية، فألقت ماتيلدا بنفسها باكية فى صدرها الحنون..

ـ سامى وماتيلدا

(١)

ست سنوات مضت ولا تقدم، باءت كل المحاولات بفشل ذريع. لجأ إلى الطبيب المتخصص وحكى له سر عذابه وشقائه.. الآن يطمئنه الطبيب بأن السبب راجع إلى توتر الأعصاب. ثمة شىء يقلقك ويجب أن تتجاوزه وقال:

- تذكر أن حياتكما معاً أثمرت ثلاثة هم الأن فى سن الشباب.

ومرة سأله الطبيب:

- هل علاقتك بزوجتك على ما يرام؟، هل تشعر بتحول زوجتك عنك؟.

كابر بالطبع ودافع عنها.. لكنه ما لبث أن عاد واعترف بأن مشكلته بدأت منذ ست سنوات عندما لاحظ بعض التغير ثم النفور من زوجته فلم يبال، وانصرف إلى

"الشرب" و"السهر" و"عالم الليل الساحر"، وكلما ازداد شعور "ماتيلدا" بالملل – ضاعف هو من سهره ومن تأخره عن المنزل. وقال للطبيب:

- أقبل على زوجتى بشوق مثل ما كنت قبل ست سنوات لكن عندما ألاحظ شرودها أتراجع.
- إذن المسألة ليست مرضاً عضوياً.. أبشر مشكلتك فى طريقها إلى الحل":

لكن "الحل" بات بعيداً جداً. ويفصله عنه آلاف الأميال.

(٢)

هاهى ماتيلدا تنصرف متوردة الوجه إلى الغرفة الأخرى.. ولا تشارك فى الفراش رغم زواج دام خمسة وعشرين عاماً.. وهاهى تنظر إلى سامى –الذى كان أسداً هصوراً– نظرات خالية من المعنى، لا بل تحتوى على معنى واحد هو خيبة الأمل الممزوجة بالإشفاق: "ليلة أمس دفعة الشوق إليها حين كانت فى الغرفة الأخرى. رآها متألقة فى

ثياب كاشفة. وتشيع فى الجوار رائحة داعية. قال فى نفسه: أحببت وأحب رائحة دعوتها، وقال بصوت سمعه: آن الآوان ليهجم الأسد الهصور. سمع صوت متشكك بداخله: أنا غير واثق من قدرتك. لكنه تحداه بصوت سمعه: رغبتى الآن عارمة..

تقدم متحدياً نحو الغرفة ولم يكن بالڤيلاّ أحد من الأولاد. هم الآن فى زيارة عمتهم بالهرم. وهياتم مديرة الڤيلاّ أستاذنت لتمضى الليلة مع والدتها فى المطرية. الڤيلاّ الآن تساعد على أداء المهمة بنجاح: الأضواء خافتة، الصمت الذى لا يجرحه صوت.. الرائحة العطرة تملأ المكان. واصل تقدمه إلى الغرفة ذات الباب الموارب. تجلس ماتيلدا فى كنبة شازلونج مادة ساقيها.. وتسند رأسها على المسند.. فى كامل هيئتها. تنتظر؟، هل شعرت برغبتك العارمة؟..

ما إن دنا منها حتى تراجع خطوتين إلى الوراء. بدت بعينيه امرأة تنتظر آخر.. لم يكن بالطبع سامى. هى لم تشعر

بدخوله الغرفة ولا بوقوفه أمامها.. ماتيلدا تنتظر شخصاً آخر صاح فى نفسه:

- ماتيلداً لا ترانى: هل أنا شبح؟، هل أنا كائن غير مرئى؟!.

(٣)

نهضتْ ودعته إلى الجلوس بعد لحظات من تراجعه. ليس بينهما عداء، ولكن بينهما بحر من الفتور يستعصى عبوره، ليس لأن فشله متكرر، وإخفاقه مستمر منذ ست سنوات، ولكن لأنها خلال تعاقب السنوات الست قد أصابها الملل والضجر، وباعد بينهما بحر الفتور، وتتثاءب عندما يتحدث.. وربما ينام عقلها إن طلب، لكن تظل عيناها مفتوحتين. كم تساءلت: هل ما يحدث الآن لها مجرد إرهاق جسدى وذهنى عابر لا يلبث أن يزول؟، لكنها لم تحظ بلحظة التركيز المنشودة عندما يفتح كلام أو يجمعهما حديث: "سألت هناء المساعدة والنصيحة فى التليفون:

- بصّرينى.. فأنا لا اهتز لحضوره، ولا أرتجف بلمساته.

قالت هناء بلسان يطمئن:

- حالة طارئة وتزول قريباً.
- طال زمنها يا هناء.. وأنا فى ارتباك شديد..
- الصبر يا ماتيلدا الصبر".

اقترب منها ومرّ بكفه الساخنة على شعرها الأسود الفاحم الغزير.. رآها فى قمة استعدادها فأقبل بهمة عالية.. حين حاولت النهوض ليذهبا إلى غرفة النوم - طلب منها البقاء حتى لا تتسرب الرغبة العارمة. قال برجاء:

- فى نفس المكان وعلى الشازلونج.

استجابت وهى تحدث نفسها بأن الحل متاح الآن برضا الرب وبدعوات "الكاهن"، وبتمنيات هناء الذهبى.. تجاوبت مع لمساته. وانتظرت.. تركته يتجول فى تفاصيلها وهى تفكر فى ناجى الذى أثار مشاعرها وأوصلها إلى ذروة النشوة بمجرد

أن اصطد بها يوم السوبر ماركت. خطرت بذهنها صورتها وصورته وهما عائدان بالسيارة. كانت تجلس فى المقعد الخلفى وتشم رائحة كم افتقدتها.. والآن هى لا تشم تلك الرائحة.. رغم تجردها فترت وأصابها الوهن، ونال من سامى -أيضاً- الفتور. حاول مرة ومرة ومرة ولكنه أخفق. تركت نفسها تماماً ولكنه أخفق، لكنها فى نشوة شديدة؛ فأيدى ناجى كانت تحتوى وتحسن الاحتواء.. كانت ترتعش بشدة بينما سامى متراجع إلى أقصى حدود التراجع، وضرب بينهما بحر الفتور الذى يستحيل اجتيازه. كيف له أن يبقى فى الحجرة بعد الآن؟. كيف له أن يواصل المحاولة بينما ماتيلدا فى واد آخر؟! هى الآن مع آخر. إنها مغمضة العينين تبتسم فى نشوة وعذوبة. من الذى منحك كل هذه الحيوية يا ماتيلدا؟!، فلابد إذن من جمع ذاتك المبعثرة والرحيل عن الغرفة. بل من الأفضل الرحيل عن الڤيلاّ، وعن التجمع، بل وعن المدينة..

فتحت ماتيلدا عينيها. اهتزت حين رآت الغرفة الخالية إلا منها. عمدت إلى ارتداء ملابسها.. أفاقت. حزنت حين رأت سامى يمضى خارجاً فى يأس، ويمشى فى تثاقل. كيف آذاته إلى هذه الدرجة وهو أب أولادهما الثلاثة؟!. سمعت صوتاً بداخلها: لم يستطع أن ينالك، ولم يجد منك المساعدة. كنت فى واد آخر أثناء المحاولة، أنت تتحملين وزر إخفاقه..

غادرت الغرفة، واندفعت باحثة عنه: أرادت أن تعيده إلى ما رغب فيه وبدأه.. عاد الصوت الداخلى يهمس: هل أنت جادة فى بحثك؟، هل رغبتك صادقة فى تكرار المحاولة؟. لا أظن أنك تريدينه، أنت تريدين الآخر الذى ملأ الجو والأماكن بتلك الرائحة التى لا تغيب.. أجابت الصوت الداخلى بأنها لا يمكن أن تخضع طول الوقت لتلك الرائحة، مهما توالت على ذهنها أصوات التحريض..

فوق الحافة

ـ شويكار العفيفى

(١)

ارتفقتْ سور الشرفة تتابع معالم الحديقة. هبت على وجهها نسمات نوفمبر حاملة عبق الورود والزهور. عارضتها أشجار الكافور الباسقة: خضراء داكنة توحى بالغموض، متراصة تحجب ما وراء السور المستطيل المرتفع كأسوار السجون..

سقطت على المعالم شمس العصر الصفراء التى لا تريح. بدت حجرة الحارس عرفان بجوار بوابة الڤيلاَ الحديدية العريضة مغلقة بإحكام، يشغلها الزوجان عديلة وعرفان.. رأيت عديلة منذ لحظات وهى تهرع إلى الحجرة وتغلق خلفها الباب.. تحرك بداخلها إحساس نشط: مضى زمن دون أن يفتح الباب.. واصل الإحساس نشاطه.. أشعر به عارماً

وعنيفاً.. مضت ساعة أو يزيد. قلت فى نفسى: حق مشروع وسوف تخرج عندما تفرغ لتتابع عملها فى الڤيلاّ؛ فهى تساعد فى المطبخ منذ الصباح حتى وقت العصر، لتعود بعد الغروب لمواصلة العمل حتى الثامنة مساء..

هاهو الباب ينفتح وتخرج منه عديلة لتتجه إلى باب الڤيلاّ الداخلى.. تأملتْها متوردة الوجه مبتسمة، سادت الوجه ملامحُ القناعة والرضا والارتياح.. ركزت نظرها أكثر فأحست بمزيد من النشاط الداخلى..

(٢)

هاهى الآن تجلس فى الشرفة وتتابع الحارس السعيد الذى خرج من الغرفة بهمّة إلى البوابة ليشملها فيض ذكريات بعيدة وقريبة، مريحة وغير مريحة. همست لنفسها: حياتى الزوجية حافلة بزوج لا يحبنى. شكرى العفيفى ابن عمى يتمادى فى هجرى دون أن أغضب. لا أغضب لأننى فى الواقع مشغولة بالأبناء الثلاثة الذين أنجبناهم ومشغولة بإعداد

رسالة دكتوراه فى الاجتماع بعد أن تخرج الأبناء من الجامعة.. رغم انشغالى ما نسيت أن من حقى أن أُحِب وأُحَب.. وأن أستدعى ذكرياتى مع الزوج الذى لم أشعر أبداً بحبه..

"حين وافقت على الزواج من ابن عمى شكرى العفيفى لم أشعر بالفرحة المنشودة التى تحلم بها البنات: اضطررت إلى الموافقة دون إبداء أى اعتراض. كيف يمكن الاعتراض على شكرى العفيفى الذى تتمناه فتيات، العائلة وفتيات العائلات الأخرى؟: شاب وسيم مؤهل، ويشغل المنصب المرموق..

لم نوفق فى الليلة الأولى ولا الثانية ولا الثالثة، وفى الليلة الرابعة تم الأمر بصعوبة وجهد جهيد.. قدرت أنه مازال مشغولاً وعالقاً بمارسيل. ضواحى مصر الجديدة تعرف بأمر حبه لمارسيل ذات الأصول اليونانية.. "مرة عقب لقاء غير حميم قلت بعد إخفاق متكرر:

- تحبها؟!.

- أحب صداقتنا القديمة.
- أقصد.. مازلت تحبها؟.
- لا يمكن أن أنسى صديقة طفولتى وصباى.
- تزوجت.. وهى الآن فى عصمة نادر اسكندر.
- مستحيل أن أنسى طفولتى وصباى.

فأيقنت أن قلبه مشغول فقط بمارسيل ولا يمكن أن يتسع لاثنين. وقلت فى نفسى أيحق لى أن أشعر بالغيرة والغضب والحسرة؟. لكن الحق بعد اقترانا لم يتصل ولم يلتق بها. تأكدت، لأننى كنت أراقب من قريب ومن بعيد.. لكن قلبى بعد إنجاب ابننا الأول عماد صار مفتوحاً وقابلاً لتجربة حب لا أعلم متى ستحدث، وصرت مشتاقة إلى هذا المجهول الذى بالقطع سيملأ الفراغ الذى عجز زوجى والأولاد الثلاثة، وعجزت دراستى عن المرأة للحصول على الدكتوراه -عن ملئه-. سنوات طويلة وأنا أنتظره..

ذات صباح منذ شهر تقريباً وأنا استقر فى مقعدى بحديقة نادى هليوبوليس ومعى كتاب بعنوان "المرأة بين الشارع والبيت" للدكتور حسين أمين - أحسست بأنه سيظهر، أغلقت الكتاب وأدرت بصرى فى المكان، لم يكذبنى إحساسى. رأيته يغمرنى بنظراته.. صحت بداخلى: هاهو أخيراً قد حضر وظهر الذى لم يعد مجهولاً..

رأيته يجلس منفرداً على مائدة قريبة مواجهة. التقت عيوننا برهة فخفق قلبى وفرح. حدثت نفسى بأن الشاب الجالس بالقرب منى هو هو مَن كنت أنتظره بفارغ الصبر. بمجرد أن تلاقت عيوننا حيانى بهزة من رأسه وبكفه اليمنى، فوجدتنى أفعل مثله دون تفكير فى العواقب. أشار علىَّ بأن نخرج فوافقت. نهض يسبقنى فنهضت. بعد دقائق قليلة اتجه إلى موقف السيارات. قصد سيارته دون أن يلتفت إلىَّ.. مضيت خلفه مسحورة قاصدة سيارتى بغير أن أنظر خلفى..

تحرك بسيارته فتحركت بسيارتى بعد دقائق. مضيت بقلب يدق بعنف. غادرت المكان إلى شارع صلاح سالم، مروراً بعمارات العبور. قبل أن نصل إلى كوبرى أكتوبر. انعطفت سيارته إلى شارع الفنجرى على اليمين ثم توقف، فأوقفت سيارتى خلف سيارته. ترجل منها وتقدم نحوى بجسارة ماداً يده إلىّ، فأغلقت المحرك ونهضت بخفة شابة مراهقة، أشعر بدمى كله يندفع فى عروقى.. أمسك بيدى واتجه إلى سيارته فاتحاً لى الباب الأيمن. لم يغلقه إلا بعد أن جلست. عاد إلى مكان القيادة.. وأسرع مغادراً المكان قاصد كوبرى أكتوبر..

فوق الكوبرى مد يده اليمنى قابضاً على يدى اليسرى، ازداد تدفق الدم فى العروق.. تحاورت كفانا للحظات قبل أن يقول هامساً:

- لا أعرف اسمك!.

- شويكار العفيفى.. وأنت ما اسمك؟.

- حاتم العدوى.

خيم صمت للحظات ثم قال:

- لاحظتك منذ عام أو أكثر.
- أنت من سكان مصر الجديدة؟.
- انتقلت إلى شارع نهرو منذ عام أو أكثر.
- لم أرك من قبل.
- كنت أراك من بعيد حائرة.. رأيتك تبحثين. تبحثين عن شيء غير موجود.
- ولم لم تكلمنى؟!.
- خشيت أن أفسد الأمر.. جمعت معلومات عنك وعن عائلتك. لك زوج وأبناء.

تطلعت إليه بدهشة وانبهار.. وهمست وأنا أستجيب لحوار يده:

- تأخرت.. تأخرت كثير.
- خفت أن أفسد الأمر. خفت أن أتصرف تصرفاً يفقدك.

نعمت بمشاعرى المتدفقة التى لم أجربها من قبل. وفجأة دققت فى وجهه الوسيم فهالنى أننى أجلس مستجيبة لشاب فى عمر ابنى عماد. اقترح بما يشبه الأمر بأن نقضى بعض الوقت فى برج الجزيرة. وافقت لكن فكرت عندما وصلت إلى أسفل البرج الشاهق فى أننى تسرعت. وأن صغر سن الشاب سيحدث لى عواقب غير محمودة.. لكن عاطفتى الحارة المتدفقة منعت من التراجع فمضيت معه إلى باب المصعد.. تواجهنا عقب استقرارنا فى الكازينو الدائرى المتحرك. رأيتنى أكبر منه. حقاً حاتم العدوى فى عمر ابنى عماد، ولكننى واصلت الاستسلام لنظراته الجريئة وكلماته، الجسور الآسرة المعسولة، وليكن ما يكون"..

(٣)

هاأنا ذا الآن أسيرة هواه ولا يمكننى نسيانه، وها هو قد نجح فى إقامة سد عال سميك بينى وبين شكرى العفيفى. والد

أولادى الثلاثة وابن عمى. وهاأنا ذا مصممة على الارتباط بالشاب، هل كنت أفكر فى أى أحد بعد أن دارت رأسى بكلماته وهمساته فى لحظة لم أعشها من قبل؟. هل يمكن التخلص من شكرى بالطلاق؟، وهل يتقبل الأبناء الثلاثة بالقرار الذى لا أتوقع أن يتحقق؟، هل يوافق رجال العائلة؟، هل توافق النساء؟، لابد إذن أن يظل ما بينى وبين حاتم العدوى سراً لا يمكن البوح به، لكن إلى متى سيدوم الكتمان؟..

لا يمكن أن يستمر الحذر والحرص على السر، سيكتشف رغم التحوط: "مرة وأنا بجواره فى سيارته فوجئت بسامية أخت شكرى وابنة عمى تحاذينا بسيارتها. حاولت إخفاء وجهى. كانت بصحبتها نجوى صديقتها الحميمة. لست متأكدة من أنها إذا كانت رأتنى أم لا. أعلم أن سامية ستتكلم إذا كانت رأتنى. ليكن. ربما يكون الحكى سبباً فى طلاق مأمول وفراق منشود"..

(٤)

هاهو شكرى الآن يقابلنى بملامح مَن عرف بالواقعة. هل حكت له سامية؟، حييته ومضيت إلى غرفتى. لكننى سرعان ما فكرت فى الواقعة.. اضطربت ورغبت فى الكلام مع هناء الذهبى. هاتفتها فدعتنى إلى الحضور إلى ڤيلاّ السعادة المجاورة. لم أغيّر ملابسى.. هرعت سيراً على قدمى قاصدة ڤيلاّ السعادة. ما إن رأيتها حتى أختنقت بالبكاء. طمأنت وهدأت، فرويتُ لها ما جرى.. قالت بعد فترة صمت:

- يجب قطع العلاقة فوراً.
- لا استطيع.. أقصد هل استطيع؟.
- حاولى. وحاولى.
- والحب؟.
- وهم وسراب.

واصلت هناء صدمى بالعظات والنصائح والتحذيرات، لكن صوتها لم يبق فى الأذن ولم يدخل القلب. ضقت بما تقول، ونشدت الرحيل. أطرقت كأننى قد استجبت، لكننى أرى الشاب واضحاً فى إطراقتى، كما رأيت شكرى وهو يدير ظهره لى.. لم أحزن ولم أغضب منه؛ فحاتم الآن يحتوينى بعينيه ونظراته الصريحة التى تحرضنى على الاستجابة والاستسلام..

ـ شكرى العفيفى

(١)

تأملت زوجتى وهى تتحرك بهمة ونشاط داخل الغرفة، ثم وهى تمضى إلى خارجها لتعطى أوامر بإعداد الفطور: فارعة الطول، رشيقة القد، ينسدل فوق كتفيها شعر ذهبى ناعم، بينما تجلت فى وجهها الصبوح عينيان واسعتان بزرقة ماء البحر الصافى: تتحرك وتصدر الأوامر بثقة واعتداد؛ فهى زوجة أستاذ بكلية الحقوق..

تزوجت من شويكار ابنة عمى الوجيه الثرى وهدان العفيفى.. كنت فى الثلاثين بعد حصولى على الدكتوراه فى القانون عندما أصرت أمى على أن تزوجنى من ليلى ابنة شقيقتها توحيدة، بينما انتصرت رغبة أبى الذى صمم على زواجى من شويكار ابنة شقيقه وهدان العفيفى..قال أبى: لابد

أن تتزوج يا شكرى. لا حجة لك ولا عذر بعد حصولك على الدكتوراه، وصرت مدرساً بالجامعة..

الواقع أننى لم أشعر بميل عاطفى إلى أى منهما؛ كان شعور الأخوة طاغياً فى سنوات الطفولة، والسنوات التى جمعتنا فى مراحل التعليم المختلفة.. لم أحلم مرة بأى واحدة منهما، لا حلم منام ولا حلم يقظة؛ لأننى كنت مشغولاً بمارسيل اليونانية الأصل التى تصغرنى بعامين، تبادلنا الحب البرىء.. وانتشينا عدة مرات فى الحقل المواجه لمنزلينا بعيداً عن أعين الرقباء. والتقينا كثيراً ليلاً فى حديقتها وفى حديقتى منزلينا المتجاورين، وفى بكور الصبح. كنا حريصين على ألا يعرف بحبنا أحد.. لكن مرة اكتشفتُ أن بعض الكبار يعرفون وراضون، وأن مباركة علاقتنا تفصح عنها عيونهم، فاندفعنا فى الحب البرىء الذى لم يخل من تلاصق فى أحيان قليلة..

كان كلانا يحب الآخر، لكن لم نتزوج؛ فقد انتصرت رغبة أبى، ووافقت أمى مرغمة على زواجى من شويكار

العفيفى، بعد أن تزوجت مارسيل من ابن خالتها الأشقر الوسيم نادر ابن رجل الأعمال المعروف اسكندر رولينى.. هاأنا ذا الآن أستاذ بالجامعة وزوج أمين مخلص، وراع صالح لأبنائى الثلاثة عماد وجلال وعادل.. كلهم متزوجون.. خلت منهم الڤيلاّ ولم يعد يشاركنى وزوجتى شويكار سوى خادمتين نوبيتين، إحداهما عديلة زوجة حارس الڤيلاّ عرفان الأسوانى..

(٢)

تابعت حركة شويكار وأنا أفكر فى مارسيل. التى علمت أنها لم تشعر باستقرار فى حياتها؛ زوجها نادر اسكندر رجل أعمال كثير الأسفار داخل البلاد وخارجها، سفره إلى بلدان أسيوية وأوروبية أكثر من سفره إلى محافظات الوطن، ويتعمد إهمال مارسيل.. "اشتكت مارسيل لشقيقتى سامية التى تصغرنى بخمسة أعوام: بأنها تعيسه ونادمة أشد الندم لأنها فرطت فى شكرى، بأن رضخت لضغوط والديها بالزواج من نادر. وروت سامية أن مارسيل قالت:

- أنا متأكدة أنه مازال يحبنى، ومتأكدة أنه يعلم أننى مازلت أحبه.

لم تستطع سامية أن تخفى عنى كلام مارسيل أكثر من شهر.. صارحتنى حين كنت فى زياراتها بمنزلها بميدان روكسى الأحد الماضى بأن مارسيل فى محنة وتحتاج منك الكلام معها، والسؤال عنها وأضافت:

- رأيت الحب فى عينيها مثلما رأيته وأنا صغيرة منذ ثلاثين عاماً.
- تساءلت..
- متى وأين رأيت؟.
- ظهر يوم فى حديقة منزلنا.. جمعكما كلام عن مادة الفيزياء، كنت تشرح لها وهى غارقة فى عينيك.

وأضافت:

- أحببت مارسيل، ولم أرحب بزواجك من شويكار.

صمتت برهة وقالت:

- واجبى أن أحذرك من شويكار.. انتبه يا شكرى".

لم تضف سامية حرفاً ولم تتحدث عن شويكار أبداً، لكن الحديث فيما بعد أشار إلى باب لم أحاول فتحه أو حتى الاقتراب منه؛ خشيت أن يتسبب فتحه فى انهيار عائلتى وتهديد مركزى الجامعى والسياسى.. نحن أبوان لثلاثة: الأكبر (عماد) نقيب بمباحث أمن الدولة، والأوسط (جلال) سكرتير ثان بالخارجية، والأصغر (عادل) مدرس بعلوم عين شمس. سنكون مضغة فى أفواه خصومى بعد تسريب الخبر إلى الصحافة، فأنا أستاذ القانون الدستورى، أنتمى لحزب العمل وأنا المستشار السياسى لرئيسه، لكن قلبى يخفق دائماً بحب مارسيل. فكيف أقمع حباً لم يخب من قلبى أبداً؟، ومادامت مارسيل تبدى الندم على رضوخها لرغبة والديها فى زواجها المبكر -فيجب علىّ أن استجيب لذكرياتنا، وأصل ما انقطع رغم المحاذير التى تنتظرنى. هل يعرف القلب المحاذير؟ هل يؤمن بالعواقب قلب تجاوز الخمسين؟..

مرة عرفت من شقيقتى سامية أن مارسيل تحرص على شرب الشاى كل أحد وخميس فى حديقة نادى الشمس القريب من مسكنى، فتساءلت فى نفسى: لم لا أقترب بقصد التعاطف والمساندة؟. صداقتنا القديمة سارية فى الدم، والحب حظى باعتراف أغلب كبار الأسرتين، ولم يكن عبثنا البرىء وسط الحقول أمام المنزلين سوى تنفيس عن رغبة مبكرة، عرفت فيما بعد أنها إرهصات البلوغ. أنا لم أنس ولم تنس مارسيل..

(٣)

هاأنا ذا الآن قررت التنفيذ. وها هو النادى شبه خال من الأعضاء.. اقتربت من المنضدة. كانت تجلس وبيدها اليمنى فنجان شاى.. عرفتها رغم مرور الأعوام الثلاثين: وجهها الأبيض الصبوح.. وشعرها الذهبى تخالطه شعرات فضية.. فمها الباسم.. أنفها الشامخ.. عيناها الخضروان..

هاهى تتطلع إلى بدون دهشة كأنها كانت تتوقع حضورى.. كأننا على موعد حددناه من قبل. حييتها فنهضت

وتصافحنا.. استبقيت كفها التى مازالت صغيرة. لم تمانع فلم تسحب يدها. جلسنا متقابلين يغلفنا صمت تسرى فيه عاطفة حب قديم. قلت بصوت خفيض:

- حكت لى سامية. عرفت منها أنك بحاجة إلى الكلام معى.

ردت بوهن لم أعهده فيها من قبل. كانت وهى صغيرة تتميز بالجرأة والصراحة:

- لم أجد غيرك يشعر بى.

استغرقنا الكلام ساعة. تذكرتُنا معاً: "كنت أتابع ذات مرة: حركة الوجه وقرمزية الشفتين وخضرة العينين. كنا نشاهد حفل زفاف ابنة صاحب المنزل المقابل. صحت فجأة:

- مستحيل يا مارسيل.. مستحيل أن يأخذك منى أحد يا مارسيل.

قالت مبتسمة تعلو رونق وجهها ملامحُ الثقة والاختيال:

- اطمئن يا شكرى.. لا يمكن أن أوافق على أحد غيرك.. أنا لا أستريح إلا لك.

لكنها بعد شهرين تمت خطبتها إلى نادر اسكندر. وعقب الخطبة بأسبوع زفت إليه فى ليلة لم أشهدها بالطبع، لأننى غادرت إلى منزل شقيقتى الكبرى مديحة المطل على ميدان تريومف. وفى ظهر اليوم التالى رجعت إلى المنزل محبطاً واهناً منكسراً وناقماً على ظروفى التى لم تمنع زواج مارسيل من شاب لا تحبه. وأكدت شقيقتى سامية استمرار حب مارسيل لى:

- مارسيل كانت شاردة أثناء حفل الزفاف، ولم تعرف الابتسامة شفتيها.. مارسيل تحبك ولن تحب سواك. حكت لى أكثر من مرة".

الواقع أننى لم أشعر بفداحة العجز فى حياتى مثلما شعرت بعجزى عن تصرفى فى مواجهة "موقعة" زواج مارسيل من نادر إسكندر.. هى الآن فى الثامنة والأربعين.. تأملتنى بنظرة حائرة وهمست:

- دبت الخلافات منذ الأيام الأولى من الزواج.

رمقتها برهة وقلت معاتباً:

- معلوماتى أنك وافقت عن اقتناع.

فبادرت بصوت واهن:

- استسلمت لضغوط بابا وماما.. كنت صغيرة..

سكتت برهة وقالت معاتبة:

- وأنت كنت مجرد طالب ولم تجاهر برأيك.

رددت بسرعة:

- قلت لك ارفضى وانتظرى حتى أنتهى من دراستى.
- عارضنى الجميع وبخاصة ماما.

قلت مهدئاً درجة انفعالى:

- أسفت للغاية عندما تزوجت.. وطوال السنوات الثلاثين الماضية وأنا أشعر بالحسرة تملأ صدرى.

ابتسمت بوداعة وقال بصوت خفيض:

- أنت كنت معى طول الوقت.. وما تزال، وكم استرحت واستريح لصوت أم كلثوم فى أغنية الأطلال.. .

تأملت وجهها المضىء وهمست:

- مازالت رغم مرور السنين جميلة متألقة.

أحمر وجهها البيضاوى الأبيض وعلت شفتيها ابتسامة رضا. رأيتنى أمد يدى اليمنى الكبيرة وأمسك بكفها اليسرى الصغيرة، وأضغطها مرات، استجابت للضغطات راضية مبتهجة، وتحاورت الأصابع العشر بعض الوقت، فامتلأتُ بنشوة تماثل النشوة التى كنت أشعر بها منذ ثلاثين عاماً ونحن فى الحقل والحديقة؛ شعرت بقلبى ينبض نبض مراهق، بينما أطرقت هى والاحمرار مازال يملأ الوجه الأبيض الصافى. وبدا لى أن الرغبة فى التلاقى تحرضنا على المزيد. فاقترحت عليها بأن نقضى بقية اليوم معاً. لم تمانع، فهمستُ:

- لابد من المواجهة.. سافاتح شويكار.
- وأنا سأطلب من نادر الطلاق.. ولدانا الآن مهاجران إلى اليونان ولن يعودا إلى مصر.
- وأولادى الثلاثة مستقرون ليسوا بحاجة إلى أحد.

نهضنا بعد أن استقبلت الموائد رواداً بعد رواد. اتجهنا إلى باب الخروج الذى ضمنا، هابطاً بنا ونحن فى نشوة تماثل نشوة سنوات المراهقة..

اهتزاز الأرض

ـ حازم المهدى

(١)

أوقف سيارته فى موقفها داخل سور ڤيلاّ الياسمين. مر بمحروس البواب الذى وقفَ أمام غرفته المجاورة للبوابة الحديدية. لاحظ محروس أن الدكتور حازم عابس الوجه.. ساهم النظرات، ولأنه يعمل منذ سنوات فى حراسة الڤيلاّ، ويشعر نحوه بالامتنان لإحسان معاملته- فقد تأثر بمنظره، ودعا له براحة البال. رأى حازم نظرات محروس فسرى فى نفسه شعور بالارتياح..

ترجل حازم من السيارة.. ومضى تجاه باب الڤيلاّ الداخلى. سرعان ما انفتح على وجه سميحة، "التى تماثل زوجته الدكتورة عايدة الكردانى فى العمر.. الخامسة والأربعون.. منذ عشرين سنة وسميحة تدير ڤيلاّ الياسمين..

ليس لها أحد.. مقطوعة من شجرة.. الڤيلاّ هى الموطن والمستقر والمأوى. الجميع بحاجة إلى سميحة. كم قالت للدكتور حازم والدكتورة عايدة، وابنيهما إيهاب ونشوى:

- ليس لى أحد. أنتم عائلتى، ولا أتصور أن أغيب عن مكان أحببته..

تحت يديها خادمتان حبشيتان دون العشرين. لهما غرفة تجاور غرفة سميحة، تحسن سميحة التوجيه، تتقبلان الملاحظات بصدر رحب وقلب مفتوح وابتسامة تبرز الأسنان البيضاء..

حين احتوته الصالة الفسيحة أسرعت سميحة نحوه وأخذت منه الحقيبة المنتفخة بالكتب والأوراق. دائماً تفعل بهمة عالية وبابتسامة رضا. مضت بالحقيبة إلى غرفة المكتب فى هدوء..

تأملها وهى تمشى بخفة ورشاقة.. تأمل إشارب الرأس. حجب شعرها الذى رأى طوله ولونه من قبل. نصفها العلوى بداخل بلوزة زرقاء واسعة وطويلة، تعلو البلوزة بنطلوناً أسود

غير ضيق.. وكان يتبعها عطر زكيّ انتشر فى المكان. أهداها الدكتور حازم العطر عندما حلّ عيد ميلادها الذى يعرفونه جميعاً، رداً على كرافتة حمراء أهدتها له فى عيد ميلاده، الذى لم تتذكره زوجته الطبيبة الدكتورة عايدة. فرح بالكرافتة التى اعتبرها مجرد تعبير عن شعورها بالامتنان لإحسان معاملتها طوال السنين الماضية، كما فرح بهدية تلميذته الدكتورة سهير الهادى المدرس بقسم الجراحة بالكلية. لكنه فى الوقت نفسه فكر فى أن زوجته الدكتورة عايدة لم تتذكر عيد ميلاده أصلاً، بل إنها لم تتذكر عيد زواجهما الشهر الماضى، ولم تكترث كثيراً بهديته لها حينئذ وهى: خاتم ذهب مطعّم بالماس الحر. شكرته عايدة مجرد شكر غير حار، كما إنها لم تلتفت إلى مظاهر الاحتفال بعيد الحب، التى بدت فى ورود حمراء وضعتها سميحة فى فازة بيضاء، وفى باقة ورد صغيرة أهدته له الدكتورة سهير الهادى، وفى أيدى شباب وشابات

بالحرم الجامعى، وفى الطريق مع باعات الزهور والورود. كيف لم تتذكر عايدة الكردانى عيد الميلاد وعيد الحب وعيد الزواج؟؟؟!

حقاً هما مشغولان طوال الوقت بالتدريس فى كلية الطب بمرحلتى البكالوريوس والدراسات العليا، وبالإشراف على الرسائل العلمية، فضلاً عن انشغال الدكتورة عايدة بعيادتها بالدقى وروكسى. الدكتورة عايدة أستاذة أمراض النساء والتوليد. مشهورة يقبل على عيادتها نساء الدقى والضواحى القريبة والبعيدة.. ويحضر إلى عيادتها نساء من محافظات أخرى، إلى جانب الرد على استفسار المرضى والحوامل فى التليفون بالمنزل والعيادتين..

رغم انشغال الدكتور حازم أيضاً فإنه يتذكر دائماً منزله وابنيهما الدكتور إيهاب خريج طب لندن ويعمل بها مدرساً، ونشوى الدبلوماسية خريجة الجامعة الأمريكية وتشغل وظيفة السكرتير الثانى بسفارة مصر فى مدريد..

عايدة لم يكن لديها وقت كاف لتتأمل نمو إيهاب ونشوى نمواً كاملاً، كما لم يكن لديها وقت لتتأمل أحوال حازم المهدى، ولتعرف ما يمكن أن يجرى فى المنزل العامر. عقب عودتها من الكلية تمضى ساعة ثم تنطلق بسرعة إلى العيادة..

(٢)

يجتمعان الآن على مائدة الغداء. يتطلع إليها. عيناها الشاردتان تنظران إليه ولا تنظران. ربما لا تراه، وربما تراه من خلف زجاج سميك غير شفيف. ترى وجوه نساء تنتظر عودة الطبيبة الماهرة لأخذ دورهن فى الكشف، ونساء حوامل أوشكن، وأخريات يلدن، بينما تسمع الصرخات الأولى للمولود..

يدرك تماماً استحالة إخراجها من عمل تندمج فيه.. تعطى حين يقتربان لكن بشرود أكيد. ومرة لاحظها أثناء اللقاء الحميمى وهى مغمضة العينين.. تستسلم لجميع إجراءته. ومرة توقف ونهض.. لم يتما الإجراء الحميمى.. ولم تسأل

ولم يسأل، ولم يحدث لوم ولا عتاب!.. منذ عام تقريبا وهما لا يكترثان. كيف وقد كان الاقتراب الحميمى شيقاً لا يضعفه قلق أو شجار أو إجهاد؟!. "قال لها ذات مرة ومنذ سنوات بعيدة.. ربما عشر سنوات:

- لا أتصور أبداً أن يبعد أحدنا عن الأخر.

فردت بسرعة:

- ولا أنا.. ".

كان وقتها يجهز بحوث الأستاذية، وكانت هى قد سبقته إليها بعام، ولم تكن قد اشتهرت مثل الآن، فتصدرت بعيادتى روكسى والدقى يافطتان عريضيتان واسعتان بخط أحمر كبير: [عيادة الدكتورة عايدة الكردانى أستاذ أمراض النساء والتوليد بطب القاهرة]. بدأت بعيادة الدقى منذ عامين، وكانت شبه خالية من المريضات والحوامل، لكن مالبثت أن ضاقت العيادة بالنساء، واتسعت شهرتها؛ ففتحت عيادتها الأخرى بروكسى،

التى تستقبل النساء يومى السبت والاثنين، بينما تعمل فى عيادة الدقى أيام الثلاثاء والأربعاء والخميس، بينما الأحد موعد اللقاء فى صالون ڤيلاّ السعادة تتصدره هناء الذهبى. أما اليوم السابع "يوم الجمعة" فيكون من حق المنزل والزوج والعائلة، وإن كانت تنام فيه غالباً طول النهار، وعندما يجلسان ليلاً فلوقت قصير للغاية. "ذكّرها منذ أيام بحوارهما الذى جرى منذ أكثر من عشر سنوات فعلقت قائلة وهى تفتح بعض المراجع لإعداد محاضرات الغد، واستعراض مجلات أجنبية طبية وردت إليها لمتابعة مستجدات التخصص. قالت بسرعة:

- أحلام وأمانى.

لم يطل ضيقه بردها السريع العابر؛ لأنه سرعان ما رأى صوراً تتوالى على رأسه بإلحاح: جاءت نشوى فى أجازة من مدريد مع زوجها ماجد المغربى، السكرتير الثانى بسفارتنا فى مدريد مع أولادهما الثلاثة ليلى ونادر وريم،

وحضر الدكتور إيهاب المدرس بطب لندن مع زوجته الإنجليزية ساندرا وولديهما سامح وسميح.. وامتلأت الڤيلاّ بحركة صخب وضجيج باعثة موجات بهجة ورضا وسرور"..

لا يداخله هم ولا فكر حزين عندما تحضر نشوى بأولادها الثلاثة، وحينما ينضم إليهم إيهاب وساندرا وولداهما، فتغيب من النفس مشاعر الغضب على عايدة التى لا يكاد يراها.. ولكن بعد سفر الجميع يعود إلى التفكير فى حرمانه العاطفى..، الذى سرعان ما يتلاشى بوجه سهير.. ونظراتها الحانية، وصوتها العامر بالاكتراث.. لا يمكن أن تغيب نظراتك الحنون ولا صوتك المكترث يا سهير..

كم فكر فى مفاتحة عايدة فى الانفصال لبناء حياة جديدة تزينها سهير التى لا تمل الانتظار.. تحبه وترفض الزواج من سواه. قال لها مرة:

- أنا أكبر منك كثيراً يا سهير.

فردت بسرعة:

- أنا فوق الثلاثين ولم ولن أحب سواك.
- أنا زوج وأب.
- لن أتزوج من أحد غيرك.

كم فكر فى أن يكون زواجه منها سراً لا يعلمه إلا المأذون والشاهدان.. لكنه لم يقدم على هذه الخطوة، ويبدو أنه لن يتقدم خطوة فى المستقبل القريب.. يمنعه ويحول بينه وبين ما يريد ذكرى وصور لقاءات باهتة.. كما تمنعه صور نشوى وإيهاب والأحفاد الخمسة.. ليس أمامه الآن وفى المستقبل إلا أن يقمع رغبته العارمة المحرضة على الاقتران بسهير التى لا تمل الانتظار..

ـ عايدة الكردانى

(١)

هاهى الدكتورة عايدة الكردانى عائدة فى الواحدة صباحاً من عيادة روكسى. تقود بنفسها السيارة المارسيدس الحمراء. بحوزتها فى حقيبة السيارة الخلفية نقود الكشوف ومقابل العمليات الصغرى – تقطع شارع (٩٠) الواسع الذى ينصّف التجمع الخامس. الشارع موحش رغم إضاءاته الباهرة الساقطة على رصيفيه. شعرتْ بخطر يكمن خلف هضاب الرمال المطلة عليه، بينما بدت الڤيلاّت المتراصة على الجانبين محاطة بأسوار عالية لا تظهر ما وراءها من حياة وأسرار.. مرت بڤيلاّ السعادة.. ڤيلاّ هناء الذهبى التى تستقبلها فى الصالون أحد كل أسبوع، للحديث والاستماع والفضفضة والمكاشفة.

بدت لها فى الأفق وهى تقصد شارع المرجان، صور مختلفة لحازم الزوج الصابر عليها، الصامت أمام غيابها، المقدر لانشغالها بالجامعة، والعيادتين. لابد له من أن يصبر، ويصمت، ويقدر، فلا يمكن التخفف من العمل، والتخلى عن مرضاى وحواملى، والراغبات فى الحمل. يتعلق الجميع بمهارة الدكتورة عايدة الكردانى.. وتتلهف التعيسات على حدوث حمل طال انتظاره. فكيف يمكن أن تتخفف من التفكير فى مرضاها وحواملها وتعيساتها؟.. كما بدت صور جاراتها وهن يتحدثن بحرية وقت احتساء الشاى والقهوة أحد كل أسبوع بصالون ڤيلاَ السعادة..

لكن عايدة تجد فى نفسها مسوغ المغالاة فى التفكير.. وكم تساءلت: هل أنا أغالى فى الاهتمام بعملى؟ أم أنا أهرب من شىء أشعر به وألاحظه منذ أكثر من عام ولا أفصح عنه.. كبرياؤها العلمى والوظيفى يمنع من الإفصاح والتصريح.. فقط عليها أن تراقب وتحسن المراقبة. ولن يكون

عليها أن تغير من الوضع القائم منذ عشرين عاماً. كيف لها أن تطرد "سميحة" لمجرد أنها لاحظت مرة أو مرتين اهتمامها بزوجها الطيب المحترم؟ سميحة تهتم بى أيضاً فتحمل عنى الحقيبة عندما أحضر، وتجهز لى الأدوات. بل أحياناً أستعين بها فى عيادة الدقى لاستقبال المترددات عليها.. لكن القلب قد تملكه إحساس بأن سميحة لم تعد مجرد مديرة للڤيلاّ. سميحة تحظى بثناء متكرر من الزوج الطيب العزيز. سميحة لا يمكن الاستغناء عنها. سميحة صارت مصدر قلق نام فى قلب عايدة الكردانى.. لكن الجديد الذى عرفته أخيراً أخطر من سميحة؛ فقد وصل إلى سمعها أنباء عن علاقة وطيدة بين الدكتور حازم والدكتورة سهير الهادى أستاذ الجراحة المساعد بالكلية.. لكنها لن تخطو خطوة من شأنها أن تهدد كبرياءها أو تهبط بها. همست لنفسها: يجب علىّ الاعتزاز والثقة بنفسى وأن أتقبل، وأرضى وأنسى همّ سميحة وسهير. الجميع لن يرحموا لو تكلمتُ وأفصحتُ وأدنت.. سيتهمونني بالتحامل. لست أملك

الدليل والبرهان.. وليس عندى وقت لاقتناص الدليل، والإمساك بالبرهان..

ليس أمام عايدة الكردانى إلا الانسحاب إلى داخلها.. ففى الداخل إحساس نام بأن قلبها انفتح على ما يمكن أن ينسى همّ تأثير "سميحة وسهير"؛.. سمحت عايدة لقلبها أن يخفق بعاطفة طارئة بعد أن مضى الزمان الطويل وهو متوقف عن الخفقان. كيف حدث هذا؟!، كيف سمحتُ لهذا الطبيب الشاب فى عمر ابنى إيهاب أن يهز الأرض من تحت قدمىّ؟!..

(٢)

التقت عايدة بهناء الذهبى الأحد الماضى بقيلاّ السعادة مدفوعة بالتوتر والقلق. انتحت بها جانباً.. لم تشأ أن تعرف الحاضرات سرها الخطير الذى تحرص على أن لا يطلع عليه أحد. همست لها:

- تعطل قلبى عن الخفقان بكثرة المشاغل والهموم.

فهمست لها هناء:

- إحساس وارد نمر به جميعاً ونحن فى هذه المرحلة من العمر.

فقالت:

- كم شعرت بقطعة حديد أو حجر صوان فى صدرى، فتساءلتُ أين قلبى؟!

سكتت برهة ثم قالت.

- وقعت فى حب طبيب.. شاب.. الدكتور هشام النادى.. عائد من أمريكا. يحمل دكتوراه فى الحقن المجهرى، وأطفال الأنابيب.

تهدج صوتها فصمتت قليلاً ثم عادت تقول:

- لا يمكن نسيانه.. أثر على حياتى فى العمل والمنزل، ولا أريد أن أخون.

تساءلت هناء:

- أحببتيه؟!.

- منذ أن رأيته أول مرة بقصر العينى.. لم أفكر فى أنه يصغرنى بعشرين عاماً.

فأسرعت هناء قائلة:

- لا تتمادى.
- حاولت.
- حاولى مرة أخرى، وأخرى، وأخرى.

شملتهما لحظات صمت ثم قالت عايدة:

- التقيت به بالفرنساوى عدة مرات، ثم حضر إلى عيادة الدقى الأسبوع الماضى، ولم أعترض حين أسرع وقبلنى.
- والمرضى.. والممرضة؟!
- بعد ذهاب الجميع بقى وهجم وقبلنى.. أقبلت عليه ولم أفكر فى أحد سواه.

صمتت قليلاً ثم قالت:

- فى ذروة الاندفاع تراجعت ونحيته.. ولم أستجب لاستجدائه.

اضطربت هناء الذهبى وتوترت. داخلتها نشوة هزة محجّمة.. لكنها قالت بحسم:

- لا يجب أن تلتقى به. أنسيت أنك زوجة وجدة؟!.

فبادرت عايدة بما يشبه الاحتجاج:

- جدة.. فى صدرها قلب ينبض بالتوق والقلق.
- شَعُر زوجك؟.
- زوجى مشغول فى صمتَ باهتمام سميحة، وحب سهير.
- عندك دليل يدين سميحة ودليل يدين سهير؟.
- قلبى يشعر ويحس ولا أكذب إحساسى.
- أرى أن تتمهلى فى اتخاذ أى قرار.
- طبعاً.. لن يمانع حازم.. مادام سيحظى بسميحة أو سهير.

- الحل فى يدك عموماً، فيمكن إبعاد سميحة بسهولة. لو كنت متأكدة. هل أنت متأكدة؟. ويمكن التحدث مع حازم وسهير.
- لا.. مجرد إحساس قوى.
- مجرد الإحساس.. يدفعك إلى تصرف خطير.
- إحساسى أقوى مما تتصورين.
- مجرد إحساس وليس عندك دليل. أنت فقط تسوغين حبك لهشام النادى.
- والحل؟!.
- قطع العلاقة والعناية بحازم.
- وسهير؟.
- اهتمى بحازم لأنك أهملتيه.
- لا أستطيع الخداع وأرفض أن أخون.. لابد من الطلاق.

همست عايدة إلى نفسها: تحذيرات هناء منطقية، لكنها جاءت متأخرة ومحبطة وداعية إلى إعادة التفكير والتساؤل: هل أستسلم وأقترن به فى زواج رسمى معلن أو زواج خفى بعد الانفصال عن حازم الطيب المشغول بسهير الجميلة؟، وكيف يتقبل القرار حازم ونشوى وإيهاب والأحفاد؟، هل أملك القدرة على الفعل والمجابهة؟.. قالت بصوت هامس:

- لا استطيع الخداع وأرفض أن أخون.
- بيدك أن يعود إليك حازم لو أردت.
- المشكلة فى أننى لا أغار من سهير ولا تهمنى فى شىء؛ يتزوجها أو يرافقها أو يفارقها. المهم أن هشام النادى ملك حياتى وسيطر على تفكيرى. لابد من الانفصال لابد.

شردت هناء الذهبى وداخلها يغلى بمشاعر متضاربة: كيف تضحى بأسرتها هكذا؟!.. إنها غير باقية على أى شىء. هل هذا حب أكيد؟، هل ما تسمعه الآن يشير إلى حب حقيقى

يقتضى التضحية بالأسرة والأمومة والعمل والسمعة العلمية؟!..

واصلت عايدة قائلة:

- كلما رأيته أصابتنى هزة.. تشعرنى نظراته ولمساته بأن الأرض تهتز بزلزال.. الأرض وأنا معه غير مستقرة..

ازداد شرود هناء الذهبى، ونشط بداخلها الغليان: كم أحبت هذه الهزة، وأرادتها، وسعت إليها، واستعادت ذكراها فى أوقات الخلوة والفراغ.. حدثت الهزة مرة منذ زمن بعيد وأنا مع زهران فى حديقة الأورمان قبل التخرج بعام، حينما قبض برفق على يدى تحت شمس مارس وسط عبق الزهور والورود.. ومع ذلك صاحت بصوت خفيض وهى ساهمة شاردة:

- فكّرى يا عايدة.. أنت فى مشكلة.

- بل أنا فى محنة.

ودّعتها وغادرت ثيلاّ السعادة بقلب غير مستقر..

(٣)

هاهى الآن تقترب من شارع المرجان.. وبدلاً من التوقف أمام الباب الحديدى لڤيلاّ الياسمين، تجاوزته ومضت إلى الأمام.. ثم انعطفت بقوة صاعدة الرصيف لتسعى فى ظلام الرمال وغموضها وهى تشعر بضيق شديد بالعمل فى الجامعة، والعيادة، وبكراهية لحازم، وسميحة، وسهير، والأبناء، والأحفاد، والأقارب، والمعارف، والأصدقاء، والمرضى، والتلاميذ، وهناء الذهبى، وهشام النادى.. وكلما توغلت السيارة فى ظلام الصحراء شعرت بارتياح عميق وسعادة غامرة..

ضبابية القناع

ـ نبيلة الوقاد

(١)

غادر الغرفة سريعاً عقب الإجراء الذى لم أعد أشعر به منذ سنوات. قصد غرفة الملابس المجاورة ليرتدى ملابس الخروج. يقضى معنا يومين كل أسبوع، ثم يرحل إلى منزله الثانى بالرحاب. بعد قليل أودعه أنا وبناتى الثلاث حتى باب الخروج من الڤيلاّ. ناهد طبيبة فى الخامسة والعشرين ومخطوبة لمدرس بكلية الطب، ونجاة فى الثالثة والعشرين مديرة صيدلية الإيمان، وعفاف فى الحادية والعشرين معيدة بأداب إنجليزى جامعة القاهرة..

تعرف البنات موعد رحيله عن ڤيلاّ الفيروز ليقضى بقية الليل وباقى الأسبوع فى ڤيلاّ الرحاب.. يودعْنه بمزيج من الحب والغيظ والعتاب: كيف هانوا عليه فتزوج من أخرى؟!،

أحطْنه بالحب والرعاية والعناية لأنه راع صالح لأسرته.. حين أمر البنات وهنّ صغار فى سن العاشرة أن يرتدين الحجاب امتثلن للأمر بعد أن أفاض فى الحديث عن قيمة الحجاب بالنسبة للبنت والمرأة. صدقْنه، وصدقته نبيلة، ولم تناقشه حينما أمرها بأن تنتقب خوفا عليها من العيون المقتحمة، وخضوعا لتعاليم الدين الحنيف.. وكم أمّنا فى الصلوات، وحدثنا عن التقوى والحياء وسلامة الاعتقاد..

لكن قاسم المنياوى منذ عامين تغير تغيراً ملحوظاً: دأب على التأخر كل ليلة عن الحضور إلى القيلاّ.. ونسق لحيته التى كانت كثة وصبغها، كما صبغ شعر رأسه الذى لم يعد أبيض كما عهدناه، وارتدى بدلات أنيقة ذات ألوان زاهية لافتة. ما الذى حدث لقاسم المنياوى؟! "مرة وهى ترافقه إلى باب الخروج أبدت استياءها من لهفته على المغادرة وقالت:

- أنت لا تقدر مشاعرى ومشاعر البنات.

فأجاب بتحفز وضجر:

- قصرتُ فى شىء؟!.

فبادرت قائلة:

- أنت تتعمد إهانتنا كل أسبوع بلهفتك الصريحة على المغادرة.
- عندى منزل آخر.. أنت عارفة ويعرف الجميع.. وله حق علىّ.
- نسيتنا بلهفتك.
- أنت أول من شجع على الزواج.
- نعم.. كنت دائماً تريد الولد.
- أردته ليحمل اسمى.. وليواصل مسيرتى.
- وأنا سمحت وشجعت على الزواج.. لكن تزوجت من سكرتيرتك التى نعرفها وتعرفنا. كانت تجىء إلى الڤيلاّ وتذهب.. كلنا يعرفها. الواقع أنك أهنتنى وأهنت البنات.. ليتك تزوجت من واحدة لا نعرفها.
- المهم تزوجت بناء على طلبك.

- مضى عام. هل جاء الولد؟!.. نحن فى الانتظار!.
- فى صوتك نغمة تشف واضحة.
- نحن نطلب لك الهناء. لكن احرص على أن تحافظ على مشاعرى ومشاعر البنات.

غضب قاسم المنياوى من الكلام، فأدار ظهره ومضى نحو الباب، وصفقه بعنف خلفه دون أن ينظر إلينا"..

(٢)

أنجبنا البنات فى سبع سنوات. وكان هو غير سعيد بعد كل إنجاب. اشتكى لأزواج شقيقاتى بأنه يرغب فى ولد ليكون حماية من بعده للأم والبنات. شقيقاتى الثلاث روين لى ما يتحدث به وعنه فى مناسبة وغير مناسبة. كم تشددت طوال السنين الماضية لأننى لم أتصور أن تشاركنى أخرى فى الرجل الذى أحببته رغم اعتراض أهلى عليه.. له ملف ضخم فى مباحث أمن الدولة؛ فهو ضمن تنظيم مضاد لأمن الوطن. قال عمى الدبلوماسى شاكر الوقاد: كيف نأمن على أنفسنا

وعلى أسرتنا العريقة من شخص مطارد فى قضايا عديدة، كلها تصب فى محاولات متكررة لإسقاط النظام الحاكم لحساب قوى إقليمية وعالمية لا تريد الاستقرار للوطن؟..

اعتقله النظام الحاكم مرات عديدة. وأودع في سجون: وادي النطرون، وطرة، وأبو زعبل، والواحات. مرات لأيام وأخرى لشهور. لم يحاكم أمام أية محكمة. ومنذ خمس سنوات لم يجر اعتقاله لأنه باع فدانًا من الفدادين العشرة التي ورثها عن أبيه، وافتتح شركة لتجارة السيارات.. وبعد أقل من عام ازدادت شهرة (سيارات النسر) التي حصلت على توكيل من تويوتا، وجنرال موتورز، ونيسان.. انشغل بحركة البيع والمتابعة وتدفق المال.. واستعان بشباب رجال وحسناوات لإدارة الشركة.. واصطفى أجمل فتاة تدنو من الثلاثين لتكون سكرتيرته الخاصة ومديرة شركته الذائعة الصيت.. حتى حدث التغير الذي وضح في السلوك والمعاملة..

(٣)

هاهو قد غادر الڤيلاّ بسعادة لم ينجح في إخفائها، فمضيت إلى الداخل مع البنات نعاني من انكسار قلوبنا، واهتزاز نفوسنا، وتعثر خطواتنا التي صعدت بنا إلى غرف الطابق الثاني.. كل بنت لها غرفة مستقلة، وأنا لدي غرفة القراءة والمحادثة.. غذيت المكتبة الصغيرة بكتب عن الأديان والعقائد، وبقصص معاصرة ودراسات عنها.. وثمة ركن تحتله منضدة فوقها كمبيوتر، وتجاوره منضدة صغيرة يعلو سطحها تليفون أزرق..

فكرت وأنا أتابع رفوف المكتبة والكمبيوتر والتليفون، في أنني رغم الإهانة المتكررة لم أفرط؛ أنا جميلة كما قال قاسم وسواه.. قبل الحجاب والنقاب تعرضتُ لغزل موح وآخر صريح، وكنت سعيدة بعبارات الثناء الداعية المحرضة، ولكننى صنت وحافظت على ما أمر به قاسم العزيز.. منذ عام وقلبي منفطر لأنه تعلق بسكرتيرته ومديرة أعماله

الحسناء السافرة دلال البرديسى.. تزوجها. رغم أنها كما قالت بناتي ونساء العائلة أقل منك جمالا وفتنة، فإننى لم أستجب لدعوات البعض بأن يكون حجاب دون نقاب، والبعض قال بل يجب خلع النقاب لاستعادة الزوج المارق الذي لم يعد راضيا عن الحجاب ولا مقتنعًا بالنقاب.. "قال مرة:

- سيان بحجاب أو بغير حجاب، بنقاب أو بغير نقاب. المهم الاقتناع.

فرددت عليه بسرعة:

- وبناتك؟!.
- يفعلن ما بدا لهن.
- أنت تقول هذا؟!.. أنا غير مصدقة.
- صدقي، صدقي.

ثم أضاف بصوت أجش:

- تعايشي مع الواقع الحاضر.

- لن أسامحك لإحراجي المتكرر، وتعمد هز صورتي باستمرار أمام بناتي والعائلة.
- لو أضفت كلامًا آخر سأغادر إلى الأبد ولن أعود.

تطلعت إليه وأنا محكومة بكبريائي وكبرياء أسرتي التي كم عارضت زواجي من قاسم المنياوى. وحدثت نفسي بأن أسرتي لن ترحمني وأنا أعود آسفة منكسرة مهيضة الجناح"..

(٤)

مضيت بهدوء إلى منضدة التليفون. حدثت نفسي بأن الأمل في استعادته لن يتحقق؛ جرى في يده المال وتدفق، وهاهو يحقق لهفته على إنجاب الولد بزواج ثان وثالث، لكل واحدة يومان، واليوم السابع يرحل إلى جهة غير معلومة. الآن تأكدت باستحالة استعادة قاسم المنياوي، ويجب أن أتقبل الأمر الواقع..

إهانة وراء إهانة، ومع ذلك لن أفرط؛ يحميني دائمًا تديّني ويردعني العلم، وتصبرني الثقافة؛ ولست أنتظر طول

الوقت، فأنا مديرة مدرسة ثانوية للبنات. لكنني بشر. عندما أشعر بفداحة الإهانة وقسوة الفقد والعجز عن الاحتجاج والشكوى إلى أي أحد –أفزع إلى غرفتي، أنعزل بعض الوقت، لا أبوح لمخلوق، ولا أكلم أحدًا.. أفكر في نشوة جمعتني بقاسم لا يمكن نسيانها، ولا يمكن لأحد غيره أن يحدثها. لذلك أندب حظي. ولا أنسى يوم تحدثت ذكرى في صالون الأحد وسط النساء عن متعة تليفون الغرام ونحن في ضيافة هناء الذهبي.. قالت ذكرى يومها:

– ما أحلى تليفون الغرام. وما أروع أحاديثه الساحرة.

شاركت بعض الحاضرات في الحديث عن غرام التليفون، وأجمعن على أنه ينفث عن الرغبة الجامحة، ويخفف عن النفوس الشعور بالحرمان، ويبدد الشكوى، ويبعث السكينة.. وقالت واحدة:

– تليفون الغرام عالم ساحر وعجيب.

وسارعت هناء الذهبى إلى القول:

- بل عالم فاسد وقبيح.

جربت مرة التعرف على عالم تليفون الغرام، فطلبت بعد تردد شديد ذات ليلة رقماً أعطته لى ذكرى الباهى ونحن فى صالون الأحد الماضى قائلة لى: صاحب هذا الرقم خبير فى تهدئة الخواطر وتبديد الهموم، فتحدثنا عدة مرات..

وعقب كل زيارة لقاسم أهرع إلى تليفون الغرام لأنسى الإهانة. ناشدة التخفيف من نقمتي عليه. لا يعرف أحد ولا يعرف قاسم العزيز الخائن. ولا تعرف البنات. أتحدث وأتحدث بحرية تامة وباطمئنان أكيد. لا أبحث بالتليفون عن المتعة بقدر نقمتي علي قاسم الذى يواصل الإهانة، وعلى نفسي، لأنني رضخت لأحاديث التليفون التى لا أقتنع بها، فهى مجرد محاولة لنسيان الإهانة المتكررة فى صمت دون أن أجاهر باحتجاجى وثورتى..

ـ قاسم المنياوى

(١)

استقل سيارته المارسيدس الزرقاء وتهادى بها نحو البوابة الخارجية لڤيلاّ الفيروز. لم يحول رأسه إلى الشرفة العلوية العريضة كي لا يرى نبيلة والبنات. لا يجب أن ينشط بداخله الشعور باللوم لأنه سبب لهن الأسى والقلق. يحب نبيلة، ويحب البنات، ويدرك أنهن يحملن له الحب والاعتزاز ومشاعر الاحترام. ڤيلاّ الفيروز يسودها السلام، ويرفرف فوقها طائر الحب والوئام؛ لم يفكر طوال عشرين سنة أن يؤذي مشاعر واحدة منهن، ولا قصد أن يربك حياتهن، لولا أنه وبتشجيع من أصدقائه أراد أن يكون له ولد. -من سيحكم هذه الشركة التي اتسع نشاطها بفروع في طنطا وشبين والإسكندرية وأسوان؟. من سيتولى من بعده هذه الشركة إلا

ابن من صلبي أمنحه أموالي وخبرتي؟.. "قال طلعت الهواري: ونحن نجلس بحديقة النادي الأهلي بمدينة نصر:

- رأيي أن تتزوج ليكون لك ولد.
- تفتكر نبيلة توافق وترضى؟.
- نبيلة مثقفة ولن تعترض.
- ربما يثمر الزواج عن بنت.
- عليك أن تحاول وتحاول حتى تحصل على الولد.. حتى لو تزوجت ثالثة ورابعة"..

(٢)

اقترب من الرحاب بفكر واهن وقلب حزين. في عينيه نبيلة والبنات الثلاث فى التجمع، ودلال البرديسى فى الرحاب، وسمية القاضى فى الشروق: لفتت دلال البرديسى نظره. سطعت فوق مجموعة سكرتارية الإدارة الرئيسية. المجموعة تضم ثلاث فتيات وأربعة شبان. اخترت أجملهن. اخترت دلال البرديسى لتكون سكرتيرتى.. سكرتيرة رئيس مجلس الإدارة "قاسم

المنياوى". أتذكر أننى عندما تحدثت معها عند اختيارى لها أمام زملائها لاحظت أن أحدهم: تامر العطار قد اكتأب وتوتر وأطرق فى الأرض. أحسست لحظتها أنه محب لها، وربما كان على علاقة بها، لكننى واصلت اتخاذ القرار، فصارت دلال البرديسى سكرتيرة خاصة بمكتب ملحق بمكتبى..

واصل اقترابه من الرحاب وبأذنيه صوت الهواري يحرض على الزواج من ثالثة ما دامت الثانية لم تمنح الولد. هل يمكن أن تعطيني سمية القاضى ما أرغب وأتمنى وأريد؟.. سمية ابنة زكريا القاضي وكيله بفرع طنطا: "رأيتها مرة في زيارة والدها بالمعرض فعلق بها قلبى. في الخامسة والعشرين في عمر ناهد ابنتى. يبدو أن الوالد فهم نظرتى إليها فشجع، ودعانى إلى تناول الغداء في منزله بشارع معاوية، خطبتُ سمية عقب الغداء. سارع الجميع إلى الموافقة.. أثَرت سمية بشبابها وقوامها الرشيق ونظراتها الطيبة الحانية، فاستبشرت خيرًا. وقلت مع شرب الشاي:

- على بركة الله يمكن أن يكون الزفاف الخميس بعد القادم، والمسكن ڤيلاّ الصباح بالشروق.

لم يعارض أحد، ولم يتحفظ. قبل الجميع ووافقوا، وأبدت سمية سعادتها وأنا أقول موجهًا إليها الكلام:

- ڤيلاّ الصباح جميلة وتنتظرك يا سمية، وتحت تصرفك سيارة مارسيدس..

أقمت حفل الزفاف بقاعة الجوهرة على مشارف طنطا.. ولاحظت شاباً عرفت أنه مهندس وابن خالة سمية كان ينظر إليها ويتابع تحركاتها طول الوقت"..

ها أنت قد أضفت إلى نبيلة الطيبة "دلال" الجميلة ولم تتجب حتى الآن، وسمية الحانية ولم يحدث حمل حتى الآن. والمشكلة أنك موزع بين المساكن الثلاثة. أي طاقة؟! وأي جهد؟! وأي عدل؟! وأي استقرار؟!. الزوجات الثلاث ينعمن بالطمأنية والاستقرار. وأنت طوال الأسبوع تتنقل ما بين التجمع والرحاب والشروق..

(٣)

انفتح باب ڤيلاّ الياسمين البنفسجية اللون بيد الحارس سعفان السوهاجى. تقف بالقرب من باب غرفته زوجته فتحية. لديهما ستة. أربعة ذكور وبنتان. لا يدخل الڤيلاّ إلا فتحية عندما تحتاج إليها الست دلال، والسائق لا يأتي إلا في الصباح إذا طلبته للتسوق أو قضاء مصالح أو الذهاب إلى السوبر ماركت..

لاحظ قاسم أن وجه الحارس سعفان تعلوه الكآبة. من شهر تقريبًا يرى سعفان مكتئبا وغير مبتسم. ونظراته حائرة وغير مستقرة. كم فكر قاسم فى أن الحارس يريد أن يفصح عن أمر جلل لكنه سرعان ما يتراجع. ماذا حل بسعفان السوهاجى؟!..

أوقف قاسم السيارة فى موقفها أمام الباب الداخلى للڤيلاّ البنفسيجية اللون. شعر بانقباض قلبه حين همّ بالدخول. التفت إلى الحارس سعفان فرآه لم يغادر مكانه: هل يتوقع أن يدعوه قاسم بك للكلام؟..

تحول عن الباب الكبير. لم يدخل.. مشى إلى وسط الحديقة قاصداً المنضدة الدائرية المحاطة بأربعة مقاعد. قبل أن يجلس فى المقعد الأوسط أشار إلى سعفان بالمجىء. لبّى سعفان بسرعة وأسرع إلى المجلس الدائرى.. وقف أمام قاسم قليلاً إلى أن طلب منه الجلوس فجلس لاهث الأنفاس زائغ البصر..

تفرس فى وجهه بعض الوقت، ثم سأله عن أحواله وأسرته هنا، وعن أهله بسوهاج، وعن موعد إجازته الذى يرغبه للسفر إلى البلد.. ثم صمت قليلاً وقال بهدوء يستحثه على الكلام:

- عندك كلام يا سعفان، تحب تقوله لى؟.

تردد سعفان لدقائق ثم قال:

- عندى.. لكن ربما الكلام يضايق سيادتك.

- تكلم.

تلفت حوله ثم همس: بأن عسران "بلدياتى" بواب القيلاّ رقم (٢٠) أخبرنى بأنه شاهد الهانم منذ شهر تدخل

القيلاً عدة مرات، وتبقى فى كل مرة ساعتين، وأن صاحب القيلاً يسكن بمفرده ليس له أسرة..

زلزلت الأرض تحت قدميه، وشعر بخجل أمام البواب الصعيدى، لكنه أطرق صامتاً لا يرفع عينيه إليه، بينما واصل سعفان الكلام إلى أن سكت.. رفع قاسم رأسه حدج سعفان بنظرة جامدة وقوية وقال بصوت متزن:

- أشكرك يا سعفان. صاحب قيلاً (٢٠) خال الهانم وعندى علم بزيارة الهانم له من وقت لآخر.

همس البواب بخجل شديد:

- الحمد لله. أنا متأسف جداً. اعذرنى يا قاسم بك.
- بالعكس أنا أشكرك على يقظتك.

نهض قاسم من المقعد ومشى جهة حوض مستدير فى الركن يضم وروداً بيضاء وحمراء سقطت فوقها أضواء أعمدة الإنارة المثبتة فى أركان الحديقة ووسطها المستدير. نظر إلى الحوض بعينين شاردتين. تأمل الورود بفكر مشغول بالخبر

الرهيب الذى نزل على عقله كصاعقة. همس لنفسه: تظاهرتُ أمام سعفان بأننى أعلم بخبر تكرار زيارة الڤيلاّ (٢٠) حتى أحافظ على مكانتى وهيبتى..

انتقل إلى ركن آخر فى الحديقة ليتابع مربع ورود وزهور يشبه ما رأى منذ قليل، لكنه لم يكن يرى شيئاً على الإطلاق سوى دلال البرديسى التى وضح له أنها تخون. وهمس فى أسى: كنت أشعر طول الوقت أنها ستتغير فى المستقبل بعد عام مثلاً أو بعد عامين. لكن لا أظن أبداً أنها تتغير بالخيانة بهذه السرعة. لم يمض على الزواج بها سوى عام. كيف تخونين وقد منحتك الاسم والجاه والمال؟!..

قال بصوت سمعه: بعد أقل من عام خانت، وربما تقابلا فى غرفة نومى. لكن لا يمكن التسليم التام بكلام سعفان. ربما يكون ما سمعه وشاية منه وافتراء عليها.. لابد من التأكد. الاتهام خطير ومدمر وفاضح. ليست دلال البرديسى

من الغباء حتى ترتكب هذه الجريمة فى ڤيلاّ قريبة.. لابد من المراقبة قبل المواجهة لابد..

اتجه إلى باب الڤيلاّ فانفتح على دلال البرديسى وهى جالسة فى فوتيه بوسط الصالة الوثيرة. جميلة بديعة التكوين. ترتدى الروب الأحمر.. تعرف أنه يفضله. نهضت واندفعت نحوه تعانقه، فبادلها العناق. لم يتحدث عما سمعه وعرفه. وبدلاً من أن يذهب كالعادة إلى غرفة الملابس لتبديل ملابسه -قصد غرفة مكتبه قائلاً:

- سأكون معك بعد ربع ساعة.

حين استوى على المقعد المريح الوثير أمسك سماعة التليفون وأجرى اتصالا بزكى الرشيدى. مخبر خبير فى التحريات. طلب منه موافاته بعد ساعتين فى الثامنة -بمكتبه بمعرض الطيران بمدينة نصر. بعد أن أغلق السماعة نهض وغادر الغرفة. رآها مازالت جالسة فى الفوتيه. أخبرها بأنه خارج لأنه على موعد مهم طارئ بالمكتب، ثم قال بسرعة:

- ربما أتأخر. عليك أن تنامى أو تشغلى نفسك بأى شىء.

(٤)

وصل إلى المكتب فى الموعد المحدد الثامنة. سبقه بدقائق المخبر الخبير.. أفضى إليه دون تردد بأنه يكلفه بمراقبة زوجته مراقبة دقيقة من الآن، وأعطاه ورقة بها عنوان القيلاّ وصورة لزوجته دلال البرديسى، ورقم سيارتها ولونها، كما حدد فى الورقة رقم التليفون.. وقال بتصميم وهو يودعه:

- أريد مراقبة دقيقة.

من الآن فصاعداً ستكون دلال البرديسى والقيلاّ تحت مجهر المراقبة.. وهاهو زكى الرشيدى يسرع إلى الخروج محملاً بمقدم الأتعاب وهو كبير، لأداء مهمته الشاقة. أنا لا أعلم ما إذا كان سيستعين بأحد معه. معلوماتى أن لديه مساعدين يجمعون المعلومات، لكن عبء تحليلها يقع على عاتقه وحده. من الآن فصاعداً تبدأ المراقبة الدقيقة التى ستؤكد أقوال سعفان أو تنفيها..

اتصل بدلال البريدى من المكتب وأخبرها بأنه لن يتمكن من الحضور إلا ظهر الغد لسفره الاضطرارى الآن إلى الإسكندرية، لمقابلة بعض الوكلاء الأجانب صباح الغد. تظاهرت دلال بالدهشة وابدت قلقها، وطالبته بالعودة إليها سريعاً، ثم قالت:

- اتمنى لك التوفيق لكن عد إلىّ بسرعة.

هاهو يسمع فى صوتها نغمة ارتياح لغيابه. يمكنها من الآن إذا كانت تخون أن ترتب مع العشيق.. وسوف يؤدى غيابه إلى حركة متهورة ستكون فى متناول المراقب الخبير.. فهو فى هذا النوع من المراقبة ماهر جبار لا يشق له غبار، بشهادة من كلفوه بمراقبات مشابهة وعددهم غير قليل. زكى الرشيدى اسم لا يعرفه إلا الباحثون عن كشف الأسرار..

(٥)

هاهو زكى الرشيدى قد عاد من المهمة بعد أسبوعين. دخل "مكتب الطيران" وجلس صامتاً. فتح حقيبة أوراقه

وأخرج منها مظروفاً كبيراً. فتحه وسحب منه ورقة بها كلام وتواريخ. كما سحب مجموعة صور ملونة كبيرة، ثم قال:

- تتقابل مع صاحب ڤيلاّ رقم (٢٠) وهى تبعد عن فيلتك بمسافة ثلاثمائة متر تقريباً..

قرأ الورقة، وشاهد الصور فاربد لون وجهه وامتقع. نهض بحركة تنبئ بانتهاء المقابلة، فقام زكى الرشيدى هو الآخر. تسلم باقى أتعابه عن المراقبة التى يبدو أنها نجحت بدليل التغيير الملحوظ على وجه قاسم المنياوى.. غادر زكى المكان بهدوء بينما استوى قاسم فى مقعده..

أعاد قراءة الورقة ثم فحص الصور، صورة صورة.. صورة لدلال البرديسى تدخل الڤيلاّ، وصورة يستقبلها صاحب الڤيلاّ، وصورة لهما لها فى كل من كازينو قصر النيل، وكازينو الشجرة، ومطعم خريستو بالهرم، فى الأيام المخصصة لنبيلة وسمية.. يا خسارة! كيف هنت عليك يا دلال وأنا الذى منحتك الجاه والمال؟!..

(٦)

لم يتصل بدلال البرديسى ليخبرها بأنه فى الطريق إلى القيلاّ. اندفع بسيارته التى قادها بنفسه قاصداً الرحاب. فكر فى أنه يجب عليه علاج الأمر فى هدوء وبغير ضجة. سيواجه بالصور المختلفة ويسجل اللقاءات المؤرخة. سيواجه وسينهى الأمر بطلاق أكيد هذا المساء..

حين اقترب من القيلاّ اندلع فى عقله خاطر تحذيرى نصحه بأن يلغى المواجهة؛ فهى لا تجدى مع امرأة يعرف مسبقاً أنها ستتغير وربما ستخون. سوف تتسرب الأخبار ليستغلها خصومك من التجار والسياسين القدامى. هناك من ينتظر أى خبر سلبى عنك للتشهير بك. لذلك يكفى أن تطلق على يد محاميك..

شعر برغبة فى رؤية نبيلة والبنات. عليه الآن أن يغير وجهته إلى قيلاّ الفيروز، حيث تنتظره نبيله والبنات.. لكنه عدل؛ فكر فى أن يتوجه إلى قيلاّ الصباح بالشروق؛ ربما وجد

لدى سمية ما يخفف من إحساسه بالدهشة والإحباط. لكن مالبثت أن خطرت برأسه صورة ابن خالتها الشاب خريج الهندسة الذى لاحظه يتطلع إليها بحسرة طول الوقت أثناء مراسم الزفاف.. فاشتدت ضربات قلبه، واندفع تيار الدم فى عروقه اندفاعاً سريعاً فشعر بآلام حادة بصدره ورأسه. فأوقف سيارته فى اللحظة التى مالت فيها رأسه إلى الأمام، حيث أسندها وهو يتوجع فوق عجلة القيادة.. وأغمض عينيه..

هدير العاصفة

ـ زهران الغانم:

(١)

وقف زهران الغانم واجماً أول الصف يتلقى العزاء فى زوجته يسرية. يسيطر على إحساسه بالغيظ والقهر، لكنه لا يستطيع السيطرة على داخله الذى يبكى يسرية: رفيقة رحلته وعمره وأم أولاده التى قتلت أول أمس بصدْم سيارته من الخلف فانقلبت بهما وهما عائدان من الإسكندرية بالطريق الصحراوى..

يتوالى المعزون للتعزية. يسبق أيدى بعضهم أحاسيس الحزن والأسف؛ فالوفاة ليست "بقضاء وقدر": ماتت يسرية بحادث مروع بالطريق الصحراوى أول أمس.. كان القاتل يستهدف زهران الغانم، المناوئ البرلمانى العنيد، الذى فتح النار فى جلسة ساخنة بالمجلس منذ أسبوعين على نواب

القروض والمساندين لهم. يثق العارفون ببواطن الأمور وظواهرها أن الحادث مدبر، استهدف زهران الغانم النائب المستقل، الذى كم ناضل تحت القبة ضد نواب بالمجلس يتسترون على جرائم نواب ورجال أعمال أهدروا المال العام، ويدافعون عنهم فى السر وفى العلن..

هاهى دفعة أخرى من المعزين: رئيس المجلس، والوكيلان، ونواب من مختلف الأحزاب. وهاهو دهشان الكردى يمد يده إلىّ بالتعزية ويده الأخرى خلف ظهره تقبض على خنجر مسموم. نظرت فى عينه فى مقت فغض بصره، ومضى ليجلس فى صف خلفى يحاول تجنب نظراتى.. تابعته وأنا أقف فيغض البصر ويطرق راسماً حزناً مزيفاً. تسلل إحساس باليقين الآن بأنه وراء الحادث.. تذكرت وأنا ألاحقه بنظراتى تحذير هناء الذهبى الذى لم آبه له كثيراً، فلم أتوقع أن يصل خلافى مع دهشان فى المجلس إلى مرحلة التدمير

القاتل.. إذا امتلكنى التأكيد وجب التحقيق، لمعاقبة القاتل والمدبر..

ينصرفون الآن فرادى، يشدون على يدى. وهاهو دهشان يقبل ناحيتى. حدقته بنظرة اتهام وإدانة فغض البصر بسرعة، ولم يتكلم. أشعر الآن باليقين يملأ صدرى. رأيت فى عينيه نظرة حسرة قبل أن يغض البصر فى كل مرة؛ لم يتوقع المدبر القاتل نجاة زهران الغانم..

(٢)

تأبطنى أكرم الدهان بعد مغادرة "مناسبات" مسجد الاستقامة بميدان الجيزة. اصطحبنى إلى سيارته لنتجه إلى مسكنى بالبحر الأعظم.. قال بعد لحظة صمت:

- الحادث مدبر.
- أعلم.
- أكد لى ضابط أمن الدولة أحمد برهان أن دهشان الكردى وراء الحادث.

- زدنى معلومات.
- قال الضابط تم القبض على السائق، واعترف بأنه تقاضى من شخص يدعى لطفى البرعى مبلغ عشرة آلاف جنيه بصدم سيارة تويوتا كرولا فضية برقم ٦١٢ ملاكى جيزة، وباستدعائه والضغط عليه اعترف بأن رامى العايدى بالسبتية هو الذى سلمه المبلغ.. رامى ابن شقيقة دهشان الكردى.

قال زهران بأسى:

- كنت أشعر منذ حدثت الصدمة العنيفة أن دهشان وراءها.

وقال أكرم بصوت آسف:

- قال الضابط: تدخلت شخصية تابعة لجهة سيادية لإبطاء التحقيق، تمهيداً لحفظه.

وأضاف أكرم:

- لابد من العقاب. لابد من تصفيته.

- لا. دع القانون يأخذ مجراه.
- قاتل.

فقال زهران بصوت متهدج:

- سأنال منه تحت قبة البرلمان.. سأنال منه.. وبالقانون.

(٣)

دخلتُ بصحبة أكرم الدهان مسكنى المطل على البحر الأعظم. انضممنا إلى أولادى الأربعة الذين سبقونى إليه. جلست بعض الوقت ثم شعرت بحاجة ماسة إلى الانفراد والعزلة. رغبت فى دخول غرفة مكتبى. مضيت وحدى إليها.. استويت على المقعد الجلدى. أرجعت رأسى إلى الوراء وأغمضت عينى: "توالت برأسى صور وأحاديث: رأيتنى وأنا أتحدث فى مقر حزب التجمع بالإسكندرية عن "ضرورة مواجهة الفساد المستشرى فى الدولة".. رأيتنى صريحاً للغاية فأشرت بأصابع الاتهام إلى الطبقة الحاكمة، ولم أستثن منهم أحداً؛ وأكدت على أن إصلاح الوطن والنهوض به مرتبط بزوال النظام الحاكم، وأن الشعب قادر على التغيير لو انتفض

وأراد و.. ورأيت صورة يسرية فى الصف الأول تنظر إلىّ برعب، وصورة أكرم الدهان وزوجته وهو يرغب فى إنهاء الحديث الخطير. بل إنه حاول مقاطعتى برأى أو بآخر؛ فالجميع يعرف أن ندوة الحزب يتم تسجيليها خفية بمعرفة مباحث أمن الدولة، وأن الليلة عامرة بالمفاجأت..

ورأيتنى وأنا أقود السيارة تجاورنى يسرية فى الصحراوى، وشاهدت فى مرآة السقف أكرم الدهان يتابعنى بمسافة غير قصيرة: زوجته خيرية ضد السرعة الفائقة، فسار أكرم بسرعة أقل من سرعتى. لكنه فيما بعد شاهد من مسافة قريبة سيارة ضخمة وهى تصدم سيارتى بشدة من الخلف، وتدفعها إلى يمين الطريق المنحدر لتنقلب عدة مرات، وأنا أسمع صراخ يسرية، بينما رأيتنى عاجزاً عن الخروج من السيارة أو الكلام.. لكننى رأيت أشباح رجال يخرجوننى بصعوبة، بينما بذلوا جهوداً شديدة لإخراج يسرية. وسمعت صوتاً وأنا فى شبه غيوبة: لن تنجو السيدة إلا بمعجزة.. وقال

أكرم الدهان بعد إسعافى من شج بجبهتى فى مستشفى الهرم وعقب إفاقتى:

- للأسف يسرية فارقت الحياة قبل أن تصل إلى المستشفى..

وجاء نقيب محقق وقال:

- تتهم أحداً؟.

- لا.

- لك أعداء أو خصوم؟.

فأجبته بحسم:

- لا.

- ساعدنا فلابد من معرفة ملابسات الحادث.

- ليس عندى ما أقوله سوى شعورى بصدمة عنيفة من الخلف قلبت سيارتى.

- عموماً سنواصل التحقيق فيما بعد. وسنتصل بك.

وسمعت فى إطراقتى تحذير هناء الذهبى منذ شهر فى التليفون بأن دهشان الكردى يدبر لك. انتبه. وكن يقظاً. وقالت بأسى:

- صرح لى دهشان منذ أسبوع بأنه سيزيح زهران الغانم من طريقه. بعض النواب مستاءون ويتمنون إزاحته بأى طريقة.

وسمعتنى أرد بصوت هادئ مطمئن:

- بعد عودتى من ندوة الإسكندرية سأتقدم بثلاثة استجوابات يوم الأحد القادم. ورأيتنى أصف لها كل استجواب على حدة. الأول: خاص بتسقيع أراضى الدولة، والثانى: يتعلق بتسهيلات هائلة من بعض البنوك لعدد من رجال الأعمال، والثالث: يتصل ببيع مؤسسات القطاع العام بالأمر المباشر بأبخس الأسعار.

وقاطعتنى هناء:

- انتبه.. انتبه.. واحذر فأعوانهم؛ أكثر مما تتصور"..

فقلت بتصميم:

- لن اتراجع عن الإيقاع بهم وتقديمهم إلى العدالة.

(٤)

أخرجنى من غفوتى صوت التليفون. فتحت عينى ونهضت: مشيت نحوه رفعت السماعة. بها صوت هناء الذهبى محمل بنغمة أسف وحزن.. قالت:

- عرفت كل شىء من أكرم الدهان. سبق أن حذرتك. ثق أننى إلى جوارك، وعندى الدليل على إدانة دهشان.

فتساءلت:

- دليل؟!.

- سمعته منذ أسبوع يتحدث بصوت خفيض فى التليفون: لابد من إزاحة زهران الغانم ولو بقتله. والتنفيذ ليلة عودته من الإسكندرية فى الطريق الصحراوى. وسوف يقيّد الحادث بأنه ضد مجهول أو بقضاء وقدر. كان مطمئناً أنه بمفرده فى الڤيلاّ. فأنا كنت فى زيارة شقيقى

أيمن الذهبى بالحى السابع ورجعت بسرعة. دخلت الڤيلاّ دون أن يشعر بحضورى. استرقت السمع. وكنت سجلت عن طريق سماعة التليفون مكالمته الأخيرة المدبرة والمحرضة بمعاونة شقيقى أيمن، لإدانة دهشان. التسجيل فى حوزتى بالصوت. وقالت:

- يمكنك أن تستخدمه ضده.. غداً فى العاشرة صباحاً أكون أمام نادى التجاريين بالبحر الأعظم لأسلمه لك..

(٥)

قبل الموعد بربع ساعة غادر زهران المسكن. هبط السلم من الطابق الرابع. لم يستعمل المصعد. فى دقائق كان فى مدخل العمارة. عبر الطريق بعد دقائق من انتظار عبور سيارة مسرعة. انتقل بخفة إلى الجانب الآخر. بدأ فى الاقتراب من سور النادى متجهاً إلى الباب الرئيسى.. أسرى بصره إلى باب المدخل الذى أخذ يدنو منه. لاحت له سيارة هناء المرسيدس السوداء. لم تهبط هناء. انتظرت أن يقبل عليه

لأخذ مظروف التسجيل الذى وعدت به، فى اللحظة التى عبرت فيها سيارة سوداء بدون أرقام. هدأت من سيرها ثم توقفت وأخرج شاب متجهم يجلس يمين السائق رشاشاً متوسط الطول وأمطر زهران الغانم بوابل من الرصاص..

ـ هناء الذهبى

(١)

هاأنا ذا أشاهد زهران فى وضح النهار يعبر الشارع ويمشى فوق الرصيف متجهاً إلى باب نادى التجاريين. أتابعه من سيارتى المتوقفة أمامه. أنتظر حضوره فأنا على موعد لتسليمه دليل الإدانة. قبل أن يقترب من مكانى مرت بى سيارة جيب سوداء تسير ببطء. بداخلها شابان يرتديان سترتين سوداوين. أحسست بقلق يغزو قلبى، فتسارعت دقاته. حدقت فى وجهيهما. فازداد قلقى ونشط توترى.. تجاوزتنى السيارة ببطئة بعدة أمتار ثم توقفت.. فجأة برزت من النافذة اليمنى لسورة مدفع بيد الشاب المجاور للسائق.. أطلق الشاب على زهران وابلاً من الرصاص، ثم أسرعت بمغادرة المكان..

صرخت دون أن يخرج صوتى. هرعت بمغادرة سيارة وبيدى اليمنى المظروف. لأرى زهران قد سقط فوق

الرصيف. اقتربت منه وأنا أحمل بيدى دليل الإدانة.. شريط التسجيل.. افترشت الأرض وأرحت رأسه فوق ساقى.. تطلع إلىّ بابتسامة صافية ودماؤه غزيرة تسيل من فمه وأنفه. سمعته بصوت لا يسمعه سواى:

- أكملى.. أكملى. لابد من إسقاطهم بالقانون.

قلت مقهورة:

- مع دليل إدانته.. لن أسكت مهما حدث.

انفطر قلبى وهو يغيب عن الوعى.. شعرت بذنب هائل يستولى علىّ. لم يعرف بالموعد أحد غيرى آه.. سجل دهشان مكالمتى خفية؛ فحدد المكان وعرف الزمان. أسرعت إلى تليفون سيارتى واتصلت بشقيقى أيمن وصديقنا أكرم الدهان.. عدت إلى زهران وأرحت رأسه على ساقى مرة ثانية، وهززت فلم يتحرك، فصرخت طالبة النجدة والإسعاف.. تطوع شاب قال أنه طبيب أمسك بيده ووضع الأخرى على صدره واقترب من فيه ثم قال:

- دعوا كل شيء فى مكانه للشرطة.. حالته خطيرة. لابد من استدعاء الإسعاف فوراً لنقله إلى المستشفى.

فقال أحد أفراد أمن النادى:

- اتصلت بالإسعاف وهى فى الطريق الآن.

تواصل صراخى فترة من الزمن حتى حضر أكرم.. وبعده بقليل حضر شقيقى أيمن، وجاءت سيارة إسعاف، وهاهى سيارة شرطة تقترب منا. وحمل رجال الإسعاف زهران إلى سيارتهم وقال أحدهم: الرجل مات. بينما دعانى ضابط محقق إلى قسم شرطة الجيزة القريب لأخذ أقوالى..

(٢)

قبل أخذ أقوالى بمكتب المأمور أكدت للضابط المحقق أننى رأيت القاتل والسائق ويمكن التعرف عليهما من وسط ألف؛ صورتاهما مطبوعتان فى ذهنى. قال الضابط المحقق:

- شاهدت الحادث؟.

- نعم.

- تعرفين القتيل؟.

- نعم. هو زهران الغانم النائب البرلمانى المعروف. كنت على موعد معه، الموعد لا يعرفه أحد غيرى. أتهم زوجى دهشان الكردى النائب البرلمانى عضو الحزب الوطنى بقتل زهران الغانم؛ فهو الذى دبر حادث الاعتداء عليه منذ أيام وراحت ضحيته زوجته، وهو الذى تنصت على مكالمتى فعرف مكان اللقاء وزمانه، وكلف أعوانه بقتله.

حول المحقق المحضر بعد التوقيع عليه إلى نيابة الجيزة.. وأضفت بأن دليل الإدانة بحوزتى.. الدليل يكشف عن القاتل الذى استأجره زوجى دهشان الكردى. فقال الضابط المحقق:

- يمكن تقديمه الآن، ويمكن تسليمه إلى النيابة.

ولكن المأمور مال إلى اقتراح تسليم الدليل إلى النيابة حرصاً عليه، وضمان وصوله إليها.. فأضفت: الدليل يحتوى

على تسجيل بصوت زوجى يدبر فيه لاغتيال النائب زهران الغانم.. وآمل أن ينزل القصاص العادل بالنائب القاتل دهشان الكردى..

(٣)

أعادنى أكرم وأيمن إلى سيارتى المتوقفة أمام النادى.. عرضا علىَّ مصاحبتى إلى منزلى لكننى أبديت رغبتى فى السير وحدى.. احترما رغبتى فمضيت بالسيارة قاصدة التجمع الخامس.. ربما عمدا إلى متابعتى عن بعد، وربما ذهب كل منهما إلى منزله. المهم الآن هو الوصول إلى الڤيلاّ التى سرعان ما اقتربت منها وشاهدتها. قبل أن أدخل من البوابة نظرت فى لافتة "ڤيلاّ السعادة"، فقلت فى نفسى:

- يجب محو هذا الاسم من الآن وفوراً.

منذ أعوام وأنا أشعر أن الاسم غريب ونشاز، ولا ينطبق على حال مَن يسكن الڤيلاّ، ومَن تحضرن إلى صالون الأحد. لابد من تدمير اللوحة.. لابد. بل لابد من غلق بابها فى

وجه جاراتى الخمس، والانصراف عن حكاياتهن. عليهن أن يعرفن أن شكاواهن ضعيفة واهية واهية..

بعد أن بلغت الباب الداخلى صعدت إلى الطابق الثانى.. اتجهت إلى غرفتى الخاصة. جلست فى الشازلونج.. فكرت وطال تفكيرى.. ثم انخرطت فى بكاء لم يوقفه أحد؛ فليس فى القيلاّ سوى سعدية مديرة القيلاّ التى لم استدعها. شعرت بعد قليل بحاجة إلى مكاشفة جاراتى بما فكرتُ فيه..

اتصلت بذكرى الباهى وصارحتها دون تردد بأننى لم أعد مستعدة لاستقبال أحد بصالون منزلى، لا فى الحاضر ولا فى المستقبل، واتصلت بالباقيات وقلت بثبات وتصميم:

- لا تفكر واحدة منكن فى الحضور إلى صالون القيلاّ فقد أغلقته إلى الأبد..

هاأنا ذا الآن أجمع متعلقاتى الصغيرة فى حقيبة متوسطة الحجم، ثم دعوت مديرة القيلاّ سعدية لإنزالها إلى الطابق الأرضى ووضعها فى سيارتى المتوقفة بالباب. لم

أنظر خلفى، ولا نظرت إلى الصالون العامر بذكريات لا أرغب فى استدعائها.. ولا تطلعت إلى الصورة الكبيرة لهناء الذهبى فى صدر الصالون. لابد من الخروج الآن دون عودة وبلا سائق. أرغب فى أن أسير وحدى فى ظلام الصحراء الخلفية؛ فعندى يقين بأن ضوءاً سيسطع فجأة ليبدد الظلام الحالك الثقيل..

الجيزة-الهرم

أكتوبر ٢٠١٠

قصص وروايات للمؤلف

أ- المجموعات القصصية:

- **الجرح:** مجموعة قصصية، ط (١) لجنة النشر للجامعيين، ١٩٧١، ط (٢)، الأنجلو المصرية-القاهرة، ١٩٩١، ط(٣) دار الإبداع ٢٠٠٨.
- **الكلام:** مجموعة قصصية، ط(١) دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٨١، ط(٢) الآداب-القاهرة، ١٩٩١، ط(٣) دار الإبداع ٢٠٠٨.
- **أمواج الفردوس:** مجموعة قصصية، ط(١) الأنجلو المصرية-القاهرة ٢٠٠٥، ط(٢) دار الإبداع ٢٠٠٩.
- **يوم:** قصص، ط(١) أجيال- الجيزة، ٢٠٠٨.
- **فى الميدان:** بورصة الكتب، القاهرة ، تحت الطبع.

ب- الروايات:

- **العائد بالحب:** ط(١) دار الإبداع- القاهرة، ٢٠٠٦، ط(٢) أجيال – الجيزة، ٢٠٠٨.

- **سلوى الروح:** ط(٢)، دار الإبداع، ٢٠٠٧.
- **فوق الأحزان:** ط(١) دار الإبداع- القاهرة، ٢٠٠٨، (ط٢) إيزيس ٢٠١٢.
- **صخب الهمس:** (ط١) دار الإبداع - القاهرة، ٢٠٠٩، (ط٢) بورصة الكتب ٢٠١١.
- **تحت الأحزان:** بورصة الكتب - القاهرة، (تحت الطبع) .